الفصل السادس

الأسماءُ والصفاتُ
عند الصوفية والفلاسفة

الفصل السادس

الأسماء والصفات

عند الصوفية والفلاسفة

مقدمة في الأسماء والصفات

قال الإمام أحمد - رحمه الله - :

لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث . . . أ . هـ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

« ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث » .

وهو سبحانه وتعالى مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله، . . . وكل ما أوجب نقصاً أوحدوثاً فإن الله منزه عنه حقيقة فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه والسلف لا يمثلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه[١] .

ثم نقل شيخ الإسلام بعد كلام طويل رسالة جوابية كتبها الشيخ أبو سليمان الخطابي وهي (الغنية عن الكلام وأهله) جاء فيها : . . . وأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء فيها من الكتاب والسُّنَّة . فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها قال شيخ الإسلام : « وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي نقل نحواً منه من العلماء ما لا يحصى عددهم »[٢] .

---

(١) مجموع الفتاوي ٥ / ٢٦ / -٢٧ من نسخة ٣٧ مجلد . شيخ الإسلام ابن تيمية . باختصار .

(٢) نفس المصدر ٥ / ٥٨-٥٩ .

والله سبحانه وتعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات [١].

قال الشارح: واعلم أن كلاً من النفي والإثبات في الأسماء والصفات مجمل ومفصل، أما الإجمالي في النفي فهو أن يُنفى عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص ، مثل قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)** ﴾ [الصافات : ٦٥] .

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب بخصوصه، فينزَّه عن الوالد والولد والشَّريك والصاحبة والنِّد والضِّد والجهل والعجز والضلال والنسيان السِّنَة والنوم والعبث الباطل [٢] .

أما الإثبات فأكثر ما يأتي تفصيلاً وهو واضح من آيات الله الكثيرة في هذا الشأن ولكن قد يأتي مجملاً أيضاً ، كما في قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة : ٢] ، ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى** ﴾ [النحل : ٦٠] .

ولكن ما جاء من منهج في التعامل مع الصفات عند فرق من المسلمين ومنهم الصوفية، وعند الفلاسفة مخالف للمنهج النبوي القويم كما سيتم بيانه.

الأسماء والصفات عند الصوفية:

لقد سار الصوفية في الأسماء والصفات مسيرة الفلاسفة بأن ادعوا تنزيهه تبارك وتعالى بصفات النفي (وهي ما يصطلح عليه صفات السلب) وهذا النفي ليس خاصاً بالصوفية ولكن البحث معني بالحديث عنهم فقط في هذه المسألة.

وقد استخدموا في ذلك مصطلحات لم تعرفها القرون الثلاثة الخيرة الأولى [٣].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية محمد خليل الهراس ص ١٠٨ ط٤ / ٢٠٠١ .

(٢) شرح الواسطية / ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) إشارة إلى حديث «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» .

ومن ذلك ما قاله صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف : [١]

" اجتمعت الصوفية على أن الله واحد أحد فرد صمد قديم عالم قادر حي سميع بصير عزيز عظيم جليل كبير جواد رؤوف متكبر جبار باق أوَّل إله سَيِّد مالكٌ ربٌّ رحمنٌ رحيم مريد حكيم متكلم خالق رازق ، موصوف بكل ما سمى به نفسه ، لم يزل قديماً بأسمائه وصفاته ، غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه ، لا تشبه ذاته الذوات ،ولا صفته الصفات ،لا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم، لم يزل سابقاً متقدماً للمحدثات موجوداً قبل كل شيء ، لا قديم غيره ، ولا إله سواه.

ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا اجتماع له ولا افتراق ،لا يتحرك ولا يسكن ، ولا ينقص ولا يزداد ، ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ولا جوارح ولا أعضاء ولا بذي جهات ولا أماكن،لا تجري عليه الآفات ،ولا تأخذه السِّنات ، ولا تداوله الأوقات ، ولا تعينه الإشارات ، لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان ، و لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن ، لا تحيط به الأفكار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الأبصار .

وقال بعض الكبراء في كلام له : لم يسبقه قبل ولا يقطعه بعد ، ولا يصادره من ، ولا يوافقه عن ولا يلاصقه إلى ولا يحله في ،ولا يوقفه إذ ولا يؤامره إن ، ولا يظلّه فوق ولا يُقلُّه تحت ،ولا يقبله حذاء ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلق ولا يحده أمام ولا يظهره قبل ولا يفنيه ، بعد ولا يجمعه كل ولا يوجده كان ، ولا يفقده ليس ولا يستره خفاء ، تقدم الحدث قدمه العدم وجوده والغاية أزله ، إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه وإن قلت قبل فالقبل بعده ، وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه ، وإن قلت كيف فقد احتجب عن الوصف بالكيفية ذاته .

وأجمعوا أنها لا تتغاير ولا تتماثل وليس علمه قدرته ولا غير قدرته وكذلك جميع صفاته من السمع والبصر والوجه واليد ليس سمعه بصره ولا غير بصره

---

(١) الكلاباذي، أبو بكر محمد بن اسحق الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ هجرية

كما أنه ليس هي هو ولا غيره" (١).

وقال أبو القاسم القشيري (٢) في رسالته:

" و اعلموا رحمكم الله أن شيوخ في هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع"(٣).

وهذه فصول تشتمل على بيان عقائدهم في مسائل التوحيد جُمعت من متفرقات كلامهم ومصنفاتهم.

" إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ موجود قديم واحد حكيم قادر عليم... عالم بعلم قادر بقدرة، مريد بإرادة سميع بسمع بصير ببصر متكلم بكلام، حي بحياة... وله يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء سبحانه على التخصيص... وصفات ذاته مختصة بذاته لا يقال هي هو ولا هي أغيار له... وأنه أحدي الذات ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا صفاته أعراض ولا يُتصَوَّر في الأوهام ولا يتقدر في العقول ولا له جهة ولا مكان... ولا يقال ما هو إذ لا جنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله يُرى لا عن مقابلة، ويُرى غيره لا عن مماقلة (٤).

الأسماء والصفات عند الغزالي:

قال الغزالي في «روضة الطالبين وعمدة السالكين» (٥): " اعلم أن جملة الأسماء الحسنى ترجع إلى ذات وسبع صفات على مذهب أهل السُّنَّة (٦)،خلافاً للمعتزلة والفلاسفة ثم إن الاسم غير التسمية وغير المسمى وهذا هو الحق فحد

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف / ص٣٣-٣٧ .

(٢) هو: أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي صاحب الرسالة المسماة (الرسالة القشيرية في علم التصوف ولد سنة ٣٧٥هـ أو ٣٧٦ وتوفي سنة ٤٥٦هـ.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٢ .

(٤) نفس المصدر ٦١ .

(٥) مطبوع ضمن مجلد كبير بعنوان مجموعة رسائل الإمام الغزالي ـ دار الكتب العلمية.

(٦) يطلق على مذهب الأشاعرة في العقيدة مذهب أهل السنة وليس الأمر كذلك.

الاسم أنه اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى" (١).

ثم ذكر الصفات السبع وهي: الحياة، العلم، الإرادة، القدرة، السمع، البصر، الكلام . وكل صفة من هذه الصفات لها تعلق إلا الحياة فإنها ينبوع الكمالات... وهذه الصفات قائمة بذات الله تعالى... واعلم أن الصفات السبع عند الأشاعرة معان زائدة على مفهوم الذات وهي ثابتة الأعيان والأحكام ومعنى ثبوت الأعيان أنها ليست نفس الذات ولا خارجة منها، وقال غيرهم من المحققين: إنها نسب وإضافات ثابتة الأحكام معدومة الأعيان، ومعنى كونها معدومة الأعيان أنها ليست زائدة على مفهوم الذات (٢).

وقال في فصل الاعتقاد والتمسك بعقيدة صحيحة:

" قال بعض الكبار:...وعلى العبد أن يعلم أن الله واحد أحد فرد صمد في ذاته وصفاته... ليس بجسم ولا جسماني، ولا بروح ولا روحاني ولا بجوهر ولا تحله الجواهر" (٣).

وقد شرح الغزالي قواعد العقائد في «الإحياء» بشيء من التفصيل وعدها ستة أصول قال في آخرها:

" وقد تحصل من هذه الأصول أنه (الله) ـ سبحانه وتعالى ـ موجود ، قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وليس في جهة، ونصه "منزه الذات عن الاختصاص بالجهات"(٤).

وقال في قواعد العقائد: " وأنه (الله سبحانه وتعالى) ليس بجسم مصوَّر ولا جوهر محدود مقدَّر ،وأنه لا يماثل الأجسام في التقدير ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ، ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ولا تحله الأعراض ، وأنه لا يحده

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين/ ص٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص٥٤-٥٥ .
(٣) نفس المصدر ٥٢ .
(٤) إحياء علوم الدين ١ / ١٠٧ دار المعرفة ـ بيروت.

مقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات وأنه مستوٍ على العرش... استواءً منزهاً عن المماسَّة والاستقرار والتمكُّن والحلول والانتقال لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته... ولا يحلُّ في شيءٍ ولا يحلُّ فيه شيء... ولا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض... وأنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله فائض عن عدله" (١).

الأسماء والصفات عند الشعراني(٢) وابن عربي:

لقد تم جمع هذين الاسمين مع بعضهما على اعتبار أن كتاب «اليواقيت والجواهر الذي تؤخذ منه عقيدة الأكابر» المؤلف في جُلِّه اقتباسات من كلام ابن عربي بل قد يكون كتاب اليواقيت والجواهر اختصار للفتوحات المكية، وقد بين الشيخ الشعراني في بداية كتابه عقيدة الشيخ فقال: "بيان عقيدة الشيخ(٣) المختصرة المبرأة له من سوء الاعتقاد... إن الله تعالى واحد لا ثاني له منزه عن الصاحبة والولد. مالك لا شريك له ملك لا وزير معه صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى مُوجِدٍ يُوجده، بل كل موجودٍ مفتقر إليه،...قائم بنفسه ليس بجوهر فيقدَّر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدَّس عن الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار ، استوى على عرشه كما قال وعلى المعنى الذي أراد كما أن العرش وما حواه به استوى... لا يحده زمان ولا يحويه مكان بل كان ولا مكان... تعالى الله أن تحله الحوادث ولا يحلها أو تكون قبله أو يكون بعدها،... وخلق الخلق وأخلق بالذي خلق

---

(١) رسالة قواعد العقائد في التوحيد / جزء من مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص٩٥ وما بعدها.

(٢) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي ـ الشعراني ، من علماء المتصوفين ولد في قلقشنده بمصر عام ٨٩٨هـ ونشأ بقرية من قرى المنوفية اسمها (ساقية أبي شعرة) توفي عام ٩٧٣هـ. له ثلاثون مؤلفاً أغلبها في التصوف، ومنها كتاب «اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر» الذي سنأخذ منه فقرات تمثل عقائد الشعراني الصوفية. والكتاب أغلبه اقتباسات من كتاب الفتوحات المكية لابن عربي الصوفي القائل بوحدة الوجود.

(٣) المقصود الشيخ ابن عربي الطائي صاحب كتاب الفتوحات المكية.

أنزل الأرواح في الأشباح أمناء وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء... وما في الأرض جميعًا منه فلا تتحرك ذرة إلا به وعنه"(١).

ودليل الاتفاق بينهما قول الشعراني في مقدمة كتابه:

" ثم اعلم يا أخي أنني طالعت من كلام أهل الكشف ما لا يحصى من الرسائل، وما رأيت في عبارتهم أوسع من عبارة الشيخ الكامل المحقق مربي العارفين الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله، فلذلك شيدت هذا الكتاب بكلامه من الفتوحات وغيرها دون كلام غيره من الصوفية، ولكنني رأيتُ في الفتوحات مواضع لم أفهمها فذكرتها لينظر فيها علماء الإسلام ويحققوا الحق، ويبطلوا الباطل إن وجدوا"(٢).

(١) مقارنة بهذا يقول أفلاطون إن الوجود الحقيقي هو وجود عالم المثل وأما عالمنا فهو عالم الظلال والأشباح ومن أجل ذلك فهو عالم مقارن للعدم. فالتسليم بوجوده والموهوم تخاذل يربأ الفيلسوف بنفسه عنه، وإن كان فيه صبابة من حقيقة فإنما هي حقيقة مستعارة تأتى من عالم المثل ـ انظر من الفلسفة اليونانية الإسلامية ١ / ١٣٢ .

(٢) مقدمة اليواقيت والجواهر ص١٦ .

الأسماء والصفات عند الفلاسفة

أولاً: أفلاطون:

كان نظر الفلاسفة اليونانيين دائماً إلى الإله منبثق عن تجربة ذاتية ، يطفو فيها النشاط العقلي أحياناً والحدسي في أكثر الأحايين كما لوحظ من خلال نقول سابقة عنهم.

وقد عُلمَ أن أفلاطون أطلق على الإله اسم الخير الأسمى أو الخير الأعلى ونقل الأستاذ « جميل صليبا » عن أفلاطون بعض صفات الخير الأعلى فقال: « للخير الأول صفات فهو خير بذاته، وهو أعظم الحقائق ثبوتاً وهو مختلف عن كل ما في العالم فلا تدركه النفس إلا إذا تحولت عما هو خاضع للصيرورة وأصبحت قادرة على تحمل عبق التأمل ».

وهو مستعص على الوصف بلغة الكلام... وهو معشوق لذاته وهو واحد بسيط أزلي كامل لا يتغير،... وهو مدبر وحكيم ينظم أمور الخلق" (١).

وقد تحدث أفلاطون طويلاً عن الخير بوصفه العلة الأولى للصور فهو الذي يهب الصور ــ ليس فقط ماهيتها ــ بل وأيضاً وجودها أي أن الوجود والماهية بالنسبة إلى الصور مأخوذان مباشرة عن صورة الخير. فكأنه من الممكن إذن عن هذا الطريق أن نرتفع إلى صورة عليا أو (إله واحد) هو الإله بصيغة التعريف (الإله) الذي هو الخير.

يصفه أفلاطون بعد هذا بصفة الألوهية المعروفة فيصفه بالقدرة المطلقة والعلم والإرادة والحياة (٢).

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية/ ص/ ٤٤ د. جميل صليبا/ دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ١٩٨٦ .

(٢) موسوعة الفلسفة ١ / ١٨٨ . ويلاحظ أن هذه الصفات الأربع هي بكاملها من ضمن الصفات السبع التي وصف بها الأشاعرة الله.

وهو العلة الأولى، وخلص أفلاطون إلى القول مهما وصفنا العلة الأولى التي هي الخير بالحقيقة فإننا نصيب الحق بحسب ما يمكن في أنفسنا أما بحسب ما تستحقه، فإن الأولى بنا أن نقول أن هذا الوصف بغاية النقصان عن استحقاقه [١].

ثانياً: الصفات عند أرسطو:

إن الله عند أرسطو: "محرك أول غير متحرك تتحرك به الأشياء وهو أزلي أبدي، باق، قديم وهو عقل... ثم يقول والمحرك الأول لا تشوبه الهيولي ولا هو ذو جسم، فالمحرك الأول واحد في الحد والعدد والجسم المتحرك أيضاً إن كان متصل الحركة يجب أن يكون واحداً فالعالم واحد. وإذن فالعلة الأولى واحدة أي أن الله واحد" [٢].

ثالثاً: الصفات عند «فيلون»:

" فيلون هو أول فيلسوف يهودي جمع بين الفلسفة واللاهوت[٣]، وقد كان شديد العناية بالكتب اليهودية وخصوصاً التوراة، وهو شديد العناية أيضاً بكتب الفلسفة اليونانية لذلك كان يرى أنه (لا ضير إذن على رجل الدين أن يأخذ بكلتا الثقافتين)[٤].

وهنا يأتي دور عقل «فيلون» ليحاول التوفيق بين الدين والفلسفة، ففيلون المتدين لم يكن يرى بُدًّا من تأويل نصوص التوراة التي تصف الله بأوصاف لا تليق به كالندم والتعب تقول التوراة في «سِفْر التكوين»[٥] تحت عنوان (اليوم السابع يوم الراحة): وهكذا اكتملت السماوات والأرض بكل ما فيها وفي اليوم السابع أتم الله عمله الذي قام به فاستراح فيه السماوات من جميع ما عمله.

---

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون ص٢٧١-٢٧٢ باختصار.
(٢) موسوعة الفلسفة ١ / ١٠٤.
(٣) نفس المصدر ٢ / ٢٢٠.
(٤) نفس المصدر وانظر أيضاً من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٢٠.
(٥) سفر التكوين: المقطع الثاني: ص٣.

وفي فقرة سقوط الإنسان تقول التوراة :(ثم سمع الزوجان صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبئا من حضرة الرب فنادى الرب الإله آدم: أين أنت..) .

وقالت التوراة في سفر التكوين أيضاً : (.. رأى الرب أن شرَّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كلَّ تصور فكر قلبه يتسم دائماً بالإثم فملأ قلبه الحزن والأسف لأنه خلق الإنسان، وقال الرب امحوا الإنسان الذي خلقته عن وجه الأرض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لأني حزنت أني خلقته) (١).

فحاول « فيلون » أن ينزه الله عن هذه الصفات غير اللائقة والتي تدل على النقص حسب ما يرى. فخرج بمقولة: قد تكون هي الأم لمقولات بعض المتكلمين المسلمين كما سيظهر لاحقاً. وهذه المقولة هي: "إن الله لا يستفزه الغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات وليس له مكان يقر فيه، وليس الله محتاجاً إلى مدة من الزمن ليخلق فيها العالم" (٢).

ولكن موسى لا يسعه إلا أن يستعمل هذه اللغة التي نفهمها نحن البشر ليصف لنا نظام العالم.

" هذه المقدمة كانت المفتاح الذي استخدمه فيلون لتأويل صفات الله كما جاءت في التوراة وأراد فيلون أن يجعل صورة الإله منزهة عن كل نقص فقال:

"إن الكائن الذي قال به أفلاطون هو« يهوه » إله بني إسرائيل والذي بَشَّر به موسى، وهو إله مفارق للعالم فوق الجوهر وفوق الفكر وخارج الزمان والمكان ، ولا يقبل الكيف ولا يحده العقل... ولا يمكن وصفه إلا بطريق السلب" (٣) .

يقول «فيلون» حسب ما يذكره د. بدوي في الموسوعة: "لا نستطيع أن

---

(١) التوراة ـ سفر التكوين ٦ / ٧ .

(٢) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٢١ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٢٢٤ .

نضيف إلى الله إلا هذه الصفات السلبية لأننا إذا أثبتنا له صفة إيجابية فقد أضفنا إليه صفات تتعارض مع طبيعته" .

يعلق د. بدوي: "ولهذا نجد فيلون لا يريد أن يبقي على أي صفة من صفات الله ، بل ينعته بأنه الموجود بلا كيف ولا صفة، . . فلا يبقى له غير صفة واحدة هي صفة الوجود .

ويعود فيلون ليثبت بعض الصفات الإيجابية بكمالاتها المطلقة لا كما يوصف بها الإنسان، وهي [القدرة المطلقة ـ الخير المطلق] ، ويبدو هنا تأثره واضحاً بأفلاطون الذي يعتبر الإله هو الخير الأسمى(١) .

رابعاً: الصفات عند أفلوطين والمدرسة الأفلاطونية الحديثة:

حاول د . عبد الرحمن بدوي شرح صفات الإله عند أفلوطين وابتدأ شرحه بنقل ترجمة عربية لفصل من فصول التساعات .

وقام البحث هنا بالنقل مرة أخرى عن د. بدوي من موسوعة الفلسفة لبيان صفات الله عند أفلوطين:

(كل ما كان بعد الأول فهو من الأول اضطراراً إلا أنه إما أن يكون منه بلا توسط وإما أن يكون منه بتوسط أشياء أخر هي بينه وبين الأول، فيكون إذن للأشياء نظام وشرح ذلك أن منها ما هو ثان بعد الأول ،ومنها ثالث أما الثاني فيضاف للأول وأما الثالث فيضاف للثاني وينبغي أن يكون قبل الأشياء كلها شيء مبسوط (أي بسيط) وأن يكون غير الأشياء التي بعده، وأن يكون مكتفياً غنياً بنفسه وأن لا يكون مختلطاً بالأشياء وأن يكون حاضراً للأشياء بنوع ما واحداً وأن لا يكون شيئاً ما ثم يكون بعد ذلك واحداً فإن الشيء إذا كان واحداً على هذا النوع كان الواحد فيه كذباً وليس واحداً حقاً وأن لا يكون له صفة ولا يناله علمٌ البتة ، وأن يكون فوق كل جوهر حسي وعقلي، وذلك أنه أن لم يكن

---

(١) موسوعة الفلسفة ٢ / ٢٢٢ .

الأول مبسوطاً (بسيطاً) واحداً، حقاً، خارجاً عن كل صفة وعن كل تركيب لم يكن أول ألبتة. [التساعات ٤ :١٥٦إلى ١٦٢] .

يعلق د. بدوي. شارحاً كلام أفلوطين:

" هذا النص يعرض أفلوطين صفات الإله [١] سواء الصفات السلبية أو الصفات الإيجابية، ذلك أنه لما كان الإله لا يمكن أن يدرك إدراكاً مباشراً أعني أن تقال عليه صفة إيجابية، فإننا لا نستطيع بهذه الحالة أن ننعت الإله إلا بالصفات السلبية... ولننظر أول الأمر في صفات السلب فنجد أن الإله لا يمكن أن تكون له صورة... وليس بذي جمال بمعنى أنه لا يدخل تحت صفة أعلى منه إنما هو الصفة العليا نفسها، بل أكثر من هذا لا يمكن أن يُقال عن الإله أنه جمال لأنه فوق كل جمال. وكذلك لا يمكن أن يُقال عن الإله أن له مقْداراً كما يمكن أن يتصف الإله بالصفات المعروفة التي تضاف إليه دائماً [٢]... ولكن رغم كل ذلك فلابد لإثبات صفات السلب من تقرير صفات إيجابية لابد منها وهي أن الإله قديم مقابل كل فان وحادث وهو ما عبر عنه باللا متناهي أزلاً وأبداً، هو واحد في مقابل الكثرة. وبعد ذلك تأتي صفات السلب.

الصلة بين نفي الصفات عند الصوفية (وبعض الفرق الأخرى) وبين النفي عند الفلاسفة:

وانتقال القول بنفي الصفات إلى المسلمين تم عبر انتقال الكتب المترجمة كما بينه غير واحد من العلماء.

وأوَّل من قال بنفي الصفات في الإسلام «الجعد بن درهم» الذي كان مُعلماً

---

(١) نص بدوي عن لفظ الجلالة هو الله ، تم نقلها الإله لأن البحث يرى أن الله سبحانه وتعالى هو اسم الله عند المسلمين، ولما كان أولئك غير مسلمين ويبحثون فقط عن قوة غيبية فاعلة يرونها أولاً، وعله، وواحداً، وبسيطاً لذا قرنت باسم الإله ليتميز الأمر بين المعنى المطروق عند المسلمين والمعنى المطروق عند الفلاسفة.

(٢) موسوعة الفلسفة ١ / ١٩٨-١٩٩ باختصار.

لمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في منهاج السُّنَّة:

" كان هذا الجعد من حرَّان، وكان فيها أئمة الصابئة والفلاسفة [١] وقد أنكر الجعد أن يكون الله فوق العرش،وأخذ « الجهم بن صفوان » الذي تنسب إليه الجهمية عن الجعد، وأخذ الجعد عن « أبان بن سمعان » وأخذ أبان عن « طالوت » ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذ طالوت من خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله ﷺ » [٢].

وقد انتشرت مسألة نفي الصفات من جهم إلى أتباعه من المعتزلة.

ولكنها انتقلت فيما بعد حتى إلى الذين كان يقال عنهم صفاتية من الأشاعرة ، حيث لم يثبتوا لله حقيقة إلا سبع صفات، وأجمعوا على القول أنه تبارك وتعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا . . . ولا . . . ولا . . . وإذا كان نفي الصفات قد وصل إلى يهود فقد بين البحث أن رأسهم بهذا الأمر هو الفيلسوف اليهودي فيلون.

وهذا النفي بذاته هو إثبات صفات سلبية لله لم يأت بها كتاب ولا سُنَّة .

والحق الذي ينبغي للمسلم أن يتبعه هو أن يثبت ما أثبت الله لنفسه وما أثبته له رسول الله ﷺ بنقل صحيح من غير تشبيه ولا تعطيل واضعين نصب أعيننا أنه تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وعلى اعتبار أن مشايخ الصوفية وأئمتهم تبنوا في هذا الاتجاه عقيدة الأشاعرة التي كانت تسمى (الصفاتية) لأنهم يثبتون الصفات ثم نتيجة المناظرات بينهم وبين المعتزلة في إطار ما سموه (علم الكلام) نفوا بعض الصفات وأثبتوا بعضها فكانوا متناقضين في ذلك كل التناقض ففي حين يقولون إن الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٢ / ١٩٢ .

(٢) رسائل ابن تيمية في العقيدة ٥ / ٢٠ . وانظر معارج القبول لحافظ أحمد حكمي ١ / ٢٧١ دار ابن القيم ـ الدمام ط١ سنة ١٩٩٠ .

ولا يقال له أين ، نجد أحدهم يقول رفعني ربي إليه مرة وأجلسني على عرشه.

وقال الآخر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرته أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا

وقال الثالث لغراب نعق: " لبيك وسعديك والخير كله إليك" .

والأصل أن مسألة الصفات تبحث في علم الكلام. ولكن الذي جعلها تدخل في علم التصوف أن كل كبرائهم كما مر عبروا عن هذه العقيدة بمنتهى الوضوح،فكان لابد من استعراض نشأتها ولو بإيجاز،وبيان أن مصدرها الأساسي الفلاسفة ولعل على رأسهم الفيلسوف اليهودي فيلون الذي كان ابن ديانة سماوية وأراد أن ينزه الله فنفى عنه بعض الصفات،وتلقف بعض المنتسبين إلى الإسلام هذه الدعوى فإن أَحْسَنَّا الظن قلنا دون تمحيص ولا تدقيق ، وإن كانت الأخرى لقلنا إنه مخطط لضرب هذا الدين في جوهره وأصله الأول وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل جميعاً.

والأمر الذي يجب الالتفات إليه هو أن مشايخ الصوفية لم يلتزموا بما أعلنوه من منهج الصفات وإنما تجاوزوه وفق منطق الفلاسفة إلى ما هو أبعد فمقولتهم بنفي الصفات مقولة عقلية لم يثبتها نص شرعي، وهم الذين قالوا بأنه لا يمكن للعقل أن يستدل على الله .

قال صاحب التعرف: " وقد أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده،... وقالوا إن العقل محدث والمحدث لا يدل إلا على مثله" .

قال رجل للنوري: ما الدليل على الله قال : الله، قال فما العقل، قال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

وقال ابن عطاء: العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية .

وقال أبو بكر القحطبي: من لحقته العقول فهو مقهور.

وقال: أنشدونا لبعض الكبار:

من رامه بالعقل مسترشداً ... فهو في حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسراره ... يقول من حيرته هل هو[١]

وإذا كان الأمر كذلك. فما هو دور النقل في معرفة الله . والنقل وحي من كتاب أو سنة صحيحة، فطالب المعرفة إما أن يكون أمام عقل أو نقل أو إلهام، وقد أبطل القوم إمكان معرفة الله بالعقل. فبقي خيارا النقل والإلهام، فأيهما المقدم ؟! إن قالوا بالنقل ، فالنقل يعني التزاماً بنصوص الشريعة الغراء من كتاب وسُنَّة . وإثبات ما أثبت الله تعالى لنفسه ونفي ما نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه من غير تشبيه ولا تمثيل وإن كان الإلهام هو المقدم ولو لم يصرَّح بذلك. فسيصل طالب المعرفة إلى نتائج أخرى غير التي قررها الكتاب والسُّنَّة الصحيحة.

وواقع الحال يشهد أن الذين زعموا باطلاً معرفته سبحانه وتعالى وصلوا إلى نتائج مغايرة تماماً لما قرره الكتاب السُّنَّة حيث وصلوا إلى القول بالوحدة وبعضهم بالاتحاد وبعضهم بالحلول وبعضهم بالفناء.

وهذه الاتجاهات أصبحت اتجاهات أساسية تمثل تيارات الصوفية في مسألة تحول النفس البشرية إلى نفس إلهية دائماً أو لفترات ومن هنا سيتحول البحث إلى دراسة هذه التوجهات أو المدارس.

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ٦٣-٦٤ .

المدارس الصوفية في التوحيد

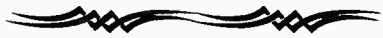

تبين في المباحث السابقة أن الصوفية يرون أن معرفة الإله ليست كسبية، وإنما هي إلهام عند بعض ومجاهدة عند بعض ونفث في روع عند بعض، وتبين بالاستقراء أنهم وصلوا إلى الفناء بالله ، نتيجة المجاهدة أو نتيجة انعكاس النور الإلهي على مرآة القلب فيصبح في حالة تتلاشى معها الصفات المذمومة (الحسية) وتبقى معها الصفات المحمودة (الإلهية) وتتحقق حالة الفناء.

ومنهم من تترقى به الحال فيتحد بالله ، فتنتفي بحقه الاثنينية، ومنهم من يحل الإله به كمن قال ما في الجبة إلا الله ، ومنهم من يرى الوجود واحداً وهو القول بوحدة الوجود.

والحديث عن هذه المدارس غير الحديث عن الطرق فالطرق الصوفية متعددة جداً بعدد المشايخ، فمنها القادرية والرفاعية والتيجانية والبكتاشية والنقشبندية والبريلوية والملامتية والخلوتية وغيرها.

وقد عدد صاحب كتاب (الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ) [١] حوالي مائة وخمسين طريقة في فصل كامل بعنوان (كشف بطائفة مما يسمونه الطرق الصوفية) . ومهما تعددت هذه الطرق فإنها لا تخرج عن المعنى العام للاتحاد بالله بصيغة من الصيغ الأربع التي سيتم الحديث عنها الآن وهي: الفناء ، الاتحاد ، الحلول ، وحدة الوجود.

والأمر كما قال قائلهم:

مذاهبنا شتى وحسنك واحدٌ وكل إلى ذاك الجمال يشير

---

(١) الأستاذ: محمود عبد الرؤوف القاسم / دار الصحابة.

الفنـــاء

ويبدأ البحث بالحديث عن الفناء:

[١] تعريف الفناء لغة:

قال في لسان العرب[١] : الفناء نقيض البقاء... وتفاني القوم : قتل بعضهم بعضاً وتفانوا أي أفنى بعضهم بعضاً في الحرب وفني فناءً هرم وأشرف على الموت.

وقال في مختار الصحاح [٢] مادة: ف ن ي: فني الشيء فناء باد، وتفانوا أفنى بعضهم بعضاً في الحرب وقال في (العين) [٣]: فني نقيض البقاء.

[٢] أما في الاصطلاح فهو عندهم:

(١) **سقوط الأوصاف المذمومة**، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة والفناء فناءان أحدهما ما ذكر وهو بكثرة الرياضة، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق [٤].

وإليه أشار المشايخ بقولهم : الفقر سواد الوجه في الدارين فسواد الوجه في الدارين ــ حسب نفس المؤلف ــ هو الفناء بالله بالكلية بحيث لا وجود لصاحبه أصلاً، ظاهراً وباطناً، دنيا وآخرة،وهو الفقر الحقيقي، والرجوع إلى العدم الأصلي، ولهذا قالوا إذا تم الفقر فهو الله [٥]، وذكر صاحب كتاب «التوقيف على مهمات التعاريف» [٦] نفس كلام الجرجاني.

---

(١) لسان العرب/ ابن منظور/ ١٥ / ١٦٤ مادة فني.
(٢) مختار الصحاح ١ / ٢١٥.
(٣) التعريفات/ الجرجاني/ ١ / ٢١٧ .
(٤) نفس المصدر ١ / ١٦٢ .
(٥) نفس المصدر ١ / ١٦٢ .
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف/ المناوي/ ص٥٦٥ و٤١٨ .

(٢) **الفناء:** تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات فكلما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية مقامها... وقيل الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة.

(٣) **وقيل الفناء:** هو أن لا ترى شيئاً إلا الله، ولا تعلم إلا الله وتكون ناسياً لنفسك ولكل الأشياء سوى الله، فعندئذٍ يتراءى لك أنه الرب، إذ لا ترى ولا تعلم شيئاً إلا هو، فتعتقد أنه لا شيء إلا هو، فتظن أنك هو، فتقول أنا الحق وتقول ليس في الدار إلا الله وليس في الوجود إلا الله [١].

وعقد الهروي[٢] باباً ـ في كتابه الموسوم «منازل السائرين» ـ في الفناء قال فيه: (الفناء هو اضمحلال ما دون الحق علماً ثم جحداً ثم حقاً وهو ثلاث درجات فناء المعرفة بالمعروف وهو الفناء علماً، وفناء العيان في المعاين وهو الفناء جحداً وفناء الطلب في الوجود وهو الفناء حقاً.

والدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها وفناء شهود العيان لإسقاطه.

والدرجة الثالثة : هي الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء حقاً، شائماً برق العين راكباً بحر الجمع سالكاً سبيل البقاء).

وقد علق ابن القيم عليه في مدارج السالكين قائلاً:

وقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع وجاء بما يرغب عنه الكُمَّل من سادات السالكين والواصلين إلى الله فقال: الفكرة في عين التوحيد اقتحام بحر الجحود وهذا بناء على أصله الذي أصَّله وانتهى إليه كتابه في أمر الفناء فإنه لما

---

(١) معجم مصطلحات الصوفية د. عبد المنعم الحفني ص٢٠٧-٢٠٨ وقد عرف الفناء وحالة التحول من الفناء إلى الحلول وانتهى بالتعريف إلى وحدة الوجود مع الفوارق بينها، ولكن تعامل القوم بالإشارات والرموز يجعلهم يقفزون هذه القفزات.

(٢) هو عبد الله الأنصاري الهروي نسبه إلى هرات وهي من بلاد أفغانستان حالياً ولد عام ٣٩٦ وتوفي عام ٤٨١ له كتاب منازل السائرين في التصوف.

رأى أن الفكرة في عين التوحيد تبعد العبد من التوحيد الصحيح عنده لأن التوحيد الصحيح عنده لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكر، والفكرة تدل على بقاء رسم لاستلزامها مفكراً وفعلاً قائماً به والتوحيد التام عنده لا يكون مع بقاء رسم أصلاً كانت الفكرة عنده علامة الجحود واقتحاما لبحره وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب(١) .

ما وحَّد الواحد من واحدٍ ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

" ومعنى أبياته ما وحد الله عز وجل أحد حق توحيده الخاص الذي تفنى فيه الرسوم ويضمحل فيه كل حادث ويتلاشى فيه كل مكون فإنه لا يتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم وهو الموحد وتوحيده القائم به فإذا وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث وذلك جحود لحقيقة التوحيد الذي تفنى فيه الرسوم وتتلاشى فيه الأكوان؛ فلذلك قال: « إذ كل من وحده جاحد » هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه وقد فسره أهل الوحدة بصريح كلامهم في مذهبهم قالوا: معنى كل من وحده جاحد أي كل من وحده فقد وصف الموحَّد بصفة تتضمن جحد حقه الذي هو عدم انحصاره تحت الأوصاف، فمن وصفه فقد جحد إطلاقه عن قيود الصفات ، وقوله : « توحيد من ينطق عن نعته » أي توحيد المحدث له الناطق عن نعته عارية مستردة فإنه الموحد قبل توحيد هذا الناطق وبعد فنائه فتوحيده له عارية أبطلها الواحد الحق بإفنائه كل ما سواه" (٢) .

وبسط ابن القيم الكلام في شرح كلام الهروي صاحب المنازل وبين أن من

---

(١) مدارج السالكين ١ /١٤٨/ ابن قيم الجوزية / تحقيق محمد حامد الفقي/ط٢ / دار الكتاب العربي١٩٧٣

(٢) مدارج السالكين ١ / ١٤٧ .

كلامه ما هو باب للاتحادية للقول بوحدة الوجود، وإن لم يقصدها الهروي فقال: "قال الاتحادي: هذا دليل على أن الشيخ (الهروي) يرى مذهب أهل الوحدة لأن العيان إنما يسقط في مبادئ حضرة الجمع لأنه يقتضي ثلاثة أمور مُعَاين ومُعَايَن ومُعَاينَة وحضرة الجمع تنفي التعداد" أ.هـ [١].

ثم حاول بعد ذلك الدفاع عن الشيخ ورد قول الاتحادية، والذي يراه البحث أن ظاهر كلام الهروي قد تقدم، وهو يشير إلى الوحدة بغض النظر عن احترام ابن القيم لآراء الشيخ الهروي، رغم أنه خطأه عند ما قال: وقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع.. إلخ.. وقد مر الكلام قبل صفحاته قليلة.

وختم ابن القيم حديثه عن الفناء بقوله:

" ويُعرَضُ للسَّالك على درب الفناء معاطب ومهالك لا يُنجِّيه منها إلا بصيرة العلم التي إن صحبته في سيره وإلا فبسبيل من هلك منها أنه إذا اقتحم عقبة الفناء ظن أن صاحبها قد سقط عنه الأمر والنهي لتشويشه على الفناء ونقضه له، والفناء عنده غاية العارفين ونهاية التوحيد فيرى ترك كل ما أبطله وأزاله من أمر ونهي أو غيرهما ويصرح بعضهم بأنه إنما يسقط الأمر والنهي عمن شهد الإرادة وأما من لم يشهدها، فالأمر والنهي لازمان له، ولم يعلم هذا المغرور أن غاية ما معه الفناء في توحيد أهل الشرك الذين أقروا به ولم يكونوا به مسلمين البتة .كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

[لقمان : ٢٥] .

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون : ٨٤ – ٨٩] .

---

(١) المصدر السابق ١ / ١٥٢ .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف : ١٠٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم يعبدون غيره.

ومن كان هذا التوحيد والفناء غاية توحيده انسلخ من دين الله ، ومن جميع رسله وكتبه إذ لم يتميز عنده ما أمر الله به مما نهى عنه ولم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ولا بين محبوبه ومبغوضه ولا بين المعروف والمنكر وسَوَّى بين المتقين والفجار والطاعة والمعصية بل ليس عنده في الحقيقة إلا طاعة لاستواء الكل في الحقيقة التي هي المشيئة العامة الشاملة ثم صاحب هذا المقام يظن أنه صاحب الجمع والتوحيد وأنه وصل إلى عين الحقيقة وإنما وصل المسكين إلى الحقيقة الشاملة التي يدخل فيها إبليس وجنوده [١] .

وتكلم القشيري قبل هؤلاء عن الفناء، فبدا وكأنهم اقتبسوا منه كلامه بنصه حينًا وبمعانيه حينًا [٢] ، فأشار بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة وبالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة.

ولكن القشيري نفسه ينسب للجنيد حادثة تتنافى وهذه القيم فيقول:

" كان الجنيد قاعداً وعنده امرأته فدخل عليه الشبلي، فأرادت امرأته (امرأة الجنيد) أن تستتر فقال لها الجنيد : لا خبر للشبلي عنك فاقعدي، فلم يزل يكلمه الجنيد حتى بكى الشبلي فلما أخذ الشبلي في البكاء، قال الجنيد لامرأته استتري فقد أفاق الشبلي.

وسواء كانت هذه غيبة أو فناء أو سَمِّها ما شئت ، فأي أساس شرعي هو الذي يجعل الجنيد يقول لامرأته بعدم الاستتار؟! .

وقال أبو الحسين النوري - وهو من أقران الجنيد - :

" أعلى مقامات أهل الحقائق انقطاعهم عن الخلائق،وسبيل المحبين التلذذ

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٦٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ١٢٨ .

بمحبوبهم وسبيل الفانين الفناء في محبوبهم [١].

وقال أبو العباس الدينوري: "مكاشفات الأعيان بالأبصار، ومكاشفات القلوب بالاتصال، وإن أدنى الذكر بنفي ما دونه، ونهاية الذكر بأن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر، وهذا هو حال فناء الفناء" [٢].

ونقل القشيري عن بعضهم: أن ذا النون المصري بعث إنساناً من أصحابه إلى أبي يزيد لينقل إليه صفة أبي يزيد، فلما جاء الرجل إلى بسطام سأل عن دار أبي يزيد فدخل عليه فقال له أبو يزيد ما تريد؟ فقال الرجل: أريد أبا يزيد فقال: (أبو يزيد) من أبو يزيد؟ وأين أبو يزيد؟ أنا في طلب أبي يزيد، فخرج الرجل وقال هذا مجنون. ورجع إلى ذي النون فأخبره ما شهد فبكى ذو النون وقال: أخي أبو يزيد ذهب في الذاهبين لله [٣].

وحقيقة ما يقصد بقوله ذهب في الذاهبين أنه فني في الله، وانسلخ من الحدث وبقي بالقدم.

وهذا ما يؤكده ابن القيم، إذ يقول: " والفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضاً فلا يبقى له صورة ولا رسم ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل" [٤].

وهذه المعاني المطروحة في الفناء ليست جديدة تماماً فقد عبر عنها القدامى

---

(١) حلية الأولياء ١٠ / ٢٥٣.
(٢) نفس المصدر ١٠ / ٣٨٣.
(٣) الرسالة القشيرية ٢٣٤.
(٤) مدارج السالكين ١ / ١٤٨.

معنىً دون التصريح باللفظ.

فقد مر في تعريف التصوف قول الجنيد: التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة وهذا هو التعبير القوي عن حالة الفناء. خصوصاً إذا ما قرأنا قولاً آخر للجنيد، في معنى التصوف إذ يقول: هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به.

وتكلم غير الجنيد من القدامى أيضاً في هذا المعنى، وذلك مثل قول أبي علي الروذباري عن التصوف: " هو اضمحلال معالم الإنسانية" ، وممن تكلم من سادتهم بالفناء أبو سعيد الخراز.

قال في حلية الأولياء ١٠ / ٢٤٦ : (أبو سعيد الخراز بن أحمد بن عيسى صحب ذا النون ونظراءه، وانتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم في الفناء.

وقال الذهبي عنه: صحب سرياً السقطي وذا النون المصري ويقال أنه أول من تكلم في الفناء... توفي سنة ٢٧٧هجرية.

وقال السلمي : هو إمام القوم في كل فن من علومهم... وهو أحسن القوم كلاماً ما خلا الجنيد فإنه الإمام [١] .

والفناء بشتى صوره قد يقترب من حيث المعنى من الوحدة (وحدة الوجود)، لأن الحالتين (حالة الفناء وحالة الوحدة) تتحول فيهما الذاتان القديمة والمحدثة إلى ذات واحدة هي القديمة، وقد تم الخلط بينهما كثيراً سواء عند الصوفية أو عند الفلاسفة.

فقد عبر الفلاسفة عن هذا النوع من الفناء بأكثر من مقولة ، إذ وصف د. مصطفى النشار حالة أفلاطون للفناء بالله قائلاً: "وعلى الرغم من محاولة أفلاطون الدائمة الاتحاد بذلك (الخير)[٢] ، للوصول إلى معرفته معرفة حدسية مباشرة ، إلا أن هذا الشوق العميق إلى تلك الوحدة الصوفية وإلى تحقيق وحدة

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ١٣ / ٤١٩-٤٢٠ .

(٢) مر في البحث أن الخير الأسمى عند أفلاطون هو الله .

كاملة بين النفس الإنسانية والإله لا ينبغي أن يُفهم على أنه نزعة صوفية متطرفة عند أفلاطون" [١] ، والذي يهم البحث من الشاهد محاولة أفلاطون للفناء بالله أو الاتحاد به علماً أن د. النشار أورد لفظ الوحدة الذي قد لا يناسب المكان الذي ذكره فيه، وعلى أية حال فإن مقولات الفلاسفة في الفناء والاتحاد كثيرة. سيتم ذكرها بعد الحديث عن المدارس الأربع في التوحيد.

وممن قال بالفناء ابن الفارض[٢] في عدة قصائد له أهمها تائيته المشهورة التي بلغت سبعمائة وستون بيتاً إذ جاء فيها :

وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة
إلى كم أؤاخي الستر ها قد هتكته وحل أواخي الحجب في عقد بيعتي
أممت أمامي في الحقيقة فالورى ورائي وكانت حيث وجهت وجهتي
يراها أمامي في صلاتي ناظري و يشهدني قلبي إمام أئمتي
ولا غرو إن صلى الإمام إلي إن ثوت في فؤادي وهي قبلة قبلتي
وكل الجهات الست نحوي توجهت بما تم من نسك وحج وعمرة

إلى أن يقول:

فمن بعدما جاهدت شاهدت مشهدي وهاديً لي إياي بل بي قدرتي
وبي موقفي لا بل إلي توجهي كذاك صلاتي لي ومني كعبتي

وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن ابن الفارض مع ابن عربي من أصحاب وحدة الوجود ،ولِكَثرَة ما أورد اسميهما معا في الرد على أصحاب وحدة الوجود [٣] .

---

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون ٢٠٥ .

(٢) هو شرف الدين عمر بن علي أبي حسن المعروف بالفارض حيث كان والده قاضياً يعمل في تقسيم المواريث ،ولد عمر بن الفارض عام ٥٧٦ هجرية في مصر بعد قدوم والده إليها من مدينة حماة السورية ، انتقل ابن الفارض إلى مكة عام ٦١٣ هجرية وعاش فيها حتى عام ٦٢٨ هجرية وعاد إلى مصر وتوفي فيها عام٦٣٢ هجرية.

(٣) يلاحظ ذلك في المجلد الثاني من مجموع الفتاوى وفي كتاب درء تعارض العقل مع النقل.

إلا أن ما جعل البحث يصف شعر ابن الفارض في مدرسة الفناء تركيزه على الصحو والمحو وهذه مسائل تتعلق بالفناء رغم أن المحصلة واحدة في الفناء والوحدة وينزه ابن الفارض نفسه عن الحلول بقوله :

ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي

وقد عد أبو الوفا التفتازاني ابنَ الفارض من المتأثرين بنظرية الفيض الإفلاطونية المحدثة فقال: "والواقع أن ابن الفارض ومن قبله الإسماعيلية والحلاج ومعاصره ابن عربي متأثرون جميعا بنظرية الفيض الإفلاطونية المحدثة [١] ،التي هي تعبير خالص عن وحدة الوجود، ويرى د.محمد مصطفى حلمي أن مثل هذه الآراء (العقدية) عند ابن الفارض قد تكون مردودة إلى مصدر زرادشتي أقدم فيقول: ورد في أحد كتب الديانة الزرادشتية أن الصَّفِي والولي والكلمة الذكية كل ذلك كان قبل أن تكون السماء والأرض والأنعام والأشجار والنار[٢]، والصوفية كلهم يقولون بهذا تحت مسمى (الحقيقة المحمدية) التي يقول ابن الفارض فيها :

وروحي للأرواح روح وكل ما ترى حسنا في الكون من فيض طينتي
و كلهم عن سبق معناي دائر بدائرتي أو وارد في شريعتي
وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن شهود ولم تعهد عهود بذمة
فلا حي إلا عن حياتي حياته وطوع مرادي كل نفس مريدة

والذي يلوح للبحث أن كلام د. محمد مصطفى حلمي لا يتعارض مع الكلام الأول إذا لوحظ رأي د.عبد الرحمن بدوي الذي يرى أن الأفلاطونية المحدثة نفسها متأثرة بالفلسفة الشرقية إذ يقول ـ بعد عرضه للنظرية وحديثه عن

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢٢٣ .
(٢) ابن الفارض والحب الإلهي ص ٣٨١-٣٨١ .

الله والعقل والنفس والطبيعة والعالم المحسوس :

"وهنا نجد أنفسنا في عالم مختلف كل الاختلاف عن العالم الذي ألفناه في الفلسفة اليونانية بالمعنى الصحيح، حيث يسقط الفارق بين الذات والموضوع ولا يكون ثمة انسجام بين الاثنين ولا تفرقة وإنما يكون محو لعالم الموضوع في عالم الذات فننتقل حينئذ إلى الذاتية المطلقة التي تفصل فصلاً تامًا أو شبه تام بين الروح اليونانية والروح الشرقية، وهكذا نجد أفلوطين في الواقع يمثل الروح الشرقية أكثر من تمثيله للروح اليونانية... وبهذا الإفناء للموضوع في الذات ...ينتهي الفكر القديم [١] .

(١) موسوعة الفلسفة ١ / ٢٠٩ .

الاتحـــاد

[١] تعريف الاتحاد لغة:

لم يذكر أصحاب المعاجم اشتقاقاً لكلمة الاتحاد فيما يشتق من وَحَدَ ووحَّد ووَحَدَ. ولذا يغلب على الظن أن هذا الاشتقاق بهذه الصيغة مولّداً.

[٢] أما في الاصطلاح:

فقد قال الجرجاني: " الاتحاد هو تصيير الذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد من الاثنين فصاعدا في الجنس يسمى مجانسة ،وفي النوع مماثلة ، وفي الخاصة مشاكلة ، وفي الكيف مشابهة ، وفي الكم مساواة ، وفي الأطراف مطابقة ، وفي الإضافة مناسبة وفي وضع الأجزاء موازنة ، وهو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل موجود بالحق فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به معدوما بنفسه لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال وقيل الاتحاد امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحدا، وقيل الاتحاد هو القول من غير روية وفكر"(١).

وقال المناوي: "الاتحاد جعل الشيئين واحداً " (٢).

وقال صاحب معجم مصطلحات الصوفية: " الاتحاد: تصيير ذاتين واحدة، وهو حال الصوفي الواصل، وقيل شهود وجود واحد مطلق من حيث أن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد معدومة في أنفسها، لا من حيث أن لما سوى الله وجوداً خاصاً به يصير متحداً بالحق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقيل شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي لكل موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به معدوماً بنفسه لا من حيث أن له وجوداً

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٢٢ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص٣١ .

خاصاً اتحد به فإنه محال[١] . وهذا المعنى قديم عند الصوفية فقد ألمح إليه صوفية الطبقة الأولى. ومنهم أبو يزيد البسطامي، حيث يقول وقد قرئ عنده قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾[مريم: ٨٥][٢]، فهاج ثم قال : من كان عنده فلا يحتاج أن يحشر لأنه معه أبداً [٣] .

وقال: " من تكلم في الأزل يحتاج أن يكون معه سراج الأزل، وقال: ما وجد الواجدون شيئاً من الحضور إلا كانوا غائبين في حضورهم وكنت أنا المخبر عنهم في حضورهم " [٤] .

وقال: " غبت عن الله ثلاثين سنة وكانت غيبتي عنه ذكري إياه فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتى كأنه أنا " [٥] .

وقال: " خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منّي فيَّ: يا من أنت أنا قد تحققت في مقام الفناء.[٦]

وقال: " منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآة نفسي لأنني لست الآن من كنتُه وفي قولي :(أنا)و(الحق) إنكار لتوحيد الحق لأنني عدم محض فالحق تعالى مرآة نفسه، بل انظر إن الحق مرآة نفسي لأنه هو الذي يتكلم بلساني أما أنا فقد فنيت [٧] .

وقال: « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » [٨] ، وقال: « سبحاني ما أعظم شاني[٩]، وقال : « خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها ، فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد لأن الكل واحد في عالم التوحيد » [١٠] .

---

(١) معجم مصطلحات الصوفية ص٩-١٠مادة اتحاد.

(٢) حلية الأولياء ١٠ / ٤١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) حلية الأولياء ١٠ / ٣٨ .

(٥) حلية الأولياء ١٠ / ٣٥ .

(٦) تذكرة الأولياء ج١ من ص ١٤٠ إلى ١٧٠ وقد أورد هذه النصوص د. أبو الوفا التفتازاني في كتابه مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١١٩-١٢٠ .

(٧) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١١٩-١٢٠ .

(٨) نفس المصدر

(٩) المصدر السابق.

(١٠) المصدر السابق

وله أقوال أخرى كثيرة غير هذه تقشعر جلود الذين آمنوا من فظاعتها،

على أن بعض أكابر الصوفية حاولوا التماس العذر لأبي يزيد في هذه المقولات. فقد نقل صاحب طبقات الصوفية عن أبي علي الجوزجاني لما سئل عن حال أبي يزيد، قال: رحم الله أبا يزيد، له حاله وما نطق به ولعله تكلم على حد الغلبة أو حال سكر (١).

وقال الذهبي في ترجمة أبي يزيد: " وجاء عنه أشياء لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه أو أنه قالها في حال السكر والغيبة والمحو فيطوى ولا يحتج بها إذ ظاهرها إلحاد مثل: « سبحاني »، « وما في الجبة إلا الله »، [ما النار؟ لأستندن إليها غداً وأقول : اجعلني فداءاً لأهلها وإلا بلعتها] ، [ما الجنة؟ لعبة صبيان] ، « ما المحدِّثون إنّ خطابهم رجل عن رجل ، فقد خاطبنا القلب عن الرب » ،وقال في اليهود : ما هؤلاء؟ ، هبهم لي أي شيء هؤلاء حتى تعذبهم (٢).

وقد حاول الغزالي أن يعتذر عن أبي يزيد خصوصاً وعن الصوفية عموماً في كتابه « المقصد الأسنى » عن كلامهم في مسائل الاتحاد فقال: وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء، فإنهم لأجل تحسين موقع الكلام من الأفهام يسلكون سبيل الاستعارة كما قال الشاعر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا (٣)

وبقية الشعر:

فإذا أبصرته أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا

وليت شعري أي تحسين للكلام هذا الذي يندرج في الكفر الصريح ، وأي

---

(١) طبقات الصوفية ١ / ١٩٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٨٨ .

(٣) المقصد الأسنى/ أبو حامد الغزالي/ ص١٥٢- /١٥٣ الجفاني والجابي للنشر/ قبرص١٩٨٧/ ت: بسام عبد الوهاب الجابي. وانظر الإحياء ٢ / ٢٩١ .

استعارة هذه التي تجعل الإنسان إلها، وقد اعتذر من قبلهم ممن قال: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة :٦٥] ، فجاء الرد حاسماً : ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٦] .

وقد مرَّ بالبحث قول الجنيد لما سُئِل عن التوحيد ، فقال : لون الماء لون الإناء، ومثله قول الشاعر الآخر عن اتحاد الناسوت باللاهوت :

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمر

وقد يبدو الشبه قريباً جداً بين الفناء والاتحاد، إذ كلا المعنيين يشير إلى أن تصبح الذاتان ذاتاً واحدة، ففي الفناء تُفنى الذات البشرية في الذات الإلهية، وتُمحى الآثار البشرية لمن فني بالله ، وهذا ما يبدو في الاتحاد، خصوصاً إذا تبين من تعريفه أنه جعل الشيئين شيئاً واحداً.

حتى أن المستشرق «نيكلسون» اعتبر أبا يزيد هو أول من استعمل كلمة الفناء بمعناها الحقيقي(١) .

ولكن الواقع يشهد بغير ذلك، فالقصة التي أوردها «أبو نصر السراج» صاحب «اللمع» عن أبي يزيد والتي نصها: " رفعني (الحق) مرة فأقامني بين يديه وقال لي يا أبا يزيد إن خلفي يحبون أن يروك فقلت: زَيِّنِّي بوحدانيتك ، وألبسني أنانيتك ، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك" (٢) .

تشهد بإثبات اثنينيته ـ من حيث الحوار والسؤال والجواب ـ وهذا مغاير للفناء على أن الفناء والاتحاد يتجهان بخط صاعد بمعنى أنه يستهلك الناسوت باللاهوت (بحسب تعبيرات القوم) ، وهذا واضح في قول أبي يزيد (رفعني)

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١٢٣ .

(٢) اللمع ـ لأبي نصر السراج ص٤٦١ .

والحلول ليس كذلك.

وقد مر أن أول من تكلم في الفناء «أبو سعيد الخراز»أما أبو يزيد فهو الذي فتق الكلام في الاتحاد بالله. وربما أشار أحياناً إلى الوحدة كما في القصة التالية:

حُكِيَ أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد فقال له يوما : «أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً وأنا أصدق به وأحبه ». فقال أبو يزيد :ولو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذَرَّة . قال : ولم ، قال: لأنك محجوب بنفسك ، قال: فلهذا دواء؟ ، قال: نعم ، قال: قل لي حتى أعمله، قال: لا تقبله، قال: فاذكره لي حتى أعمل، قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك ،وقل:كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود ،وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل :سبحان الله تقول لي مثل هذا، فقال أبو يزيد : قولك سبحان الله شرك، قال: وكيف؟ ، قال: لأنك عظَّمتَ نفسك فسبحتها وما سَبَّحتَ ربك، فقال: هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره ، فقال:ابتدئ بهذا قبل كل شيء، فقال: لا أطيقه، قال: قد قلتُ لك إنك لا تقبل [١].

علَّق أبو حامد الغزالي على هذه القصة قائلاً:

" فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ،ومرض بنظر الناس إليه ولا يُنجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً ، فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها فويل لمن حُرِمَ هذا القدر القليل أيضاً ، وهذه أمور جلية في الشرع واضحة،وهي مع ذلك مستبعدة

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٣٥٨ .

عند من يعد نفسه من علماء الشرع" [١] .

وأكثر علماء الصوفية يحاولون إنكار القول بالاتحاد وبالحلول أيضاً على اعتبار عدم إمكان تحول ذاتين إلى ذات واحدة. ويقرّون مسألة القول بالفناء محاولين تبريرها بأنها حالة نفسية يغيب فيها العارف عن نفسه كما سيبين البحث أنهم يقرون الأخطر وهو القول بوحدة الوجود.

ولعل الإجماع الصوفي قائم على «الفناء والوحدة» أما «الاتحاد والحلول» فمستنكران من بعض رؤساء القوم من حيث الأصل ، وإنما يبرران على أنهما تحدثان في حالة الغيبة عن الذات أي الفناء.

(١) المصدر السابق ٤ / ٣٥٨ .

الحلـــول

[١] تعريف الحلول لغة:

قال في لسان العرب:

حلل: حلَّ بالمكان يحل حلولاً ومحلاً وحلا بفك التضعيف نادر ، وذلك نزول القوم بمحلة وهو نقيض الارتحال [١] .

[١] وذكر الجرجاني الحلول بالمعنى الاصطلاحي وقسمه إلى نوعين:

الأول: الحلول الجواري: وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكوز.

الثاني: الحلول السرياني: وهو عبارة عن اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر ، كحلول ماء الورد في الورد فيسمَّى الساري حالاً والمسري فيه محلاً [٢] .

وعرفه صاحب معجم مصطلحات الصوفية بقوله: الحلول قال بعضهم أن الله يحل في العارفين ، وقيل إن الله تعالى لا يحل في غيره لأن الحلول هو الحصول على سبيل التبعية فينفي الوجوب الذاتي، وكما لا تحل ذاتهُ في غيره ، لا تحل صفاته في غيره ، والمخالف لهذا طوائف ثلاث الأولى النصارى: قالوا حَلَّ الباري تعالى في عيسى بن مريم عليه السلام ، . . . والثانية النُّصَيْرِيَّة والاسحاقية من غلاة الشيعة، والثالثة حلولية المتصوفة [٣] .

وحلولية المتصوفة هم المنسوبون إلى الحسين بن منصور الحلاج (أبي مغيث) فقد ذكر عبد القاهر البغدادي[٤] فرق الحلولية وعدّ منهم الحلاجية فقال: وأما

---

(١) لسان العرب ١١ / ١٦٣ .

(٢) التعريفات / الجرجاني ١٢٥ .

(٣) معجم مصطلحات الصوفية ص٨٢ .

(٤) هو عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفراييني المتوفى ٤٢٩هـ.

الحلاجية فمنسوبون إلى أبي مغيث الحسين بن منصور المعروف بالحلاج... وكانت عباراته من الجنس الذي تسميه الصوفية (الشطح)... والذين نسبوه إلى الكفر وإلى دين الحلولية حكوا عنه أنه قال: من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى ابن مريم، ولم يُرِد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد [١].

وذكر أنهم ظفروا بكتبٍ (أرسلها) إلى أتباعه عنوانها (من الهو الذي هو رب الأرباب المتصور في كل صورة، إلى عبده فلان) كما ظفروا برد أتباعه عليه وفي الرد: (يا ذات الذات، ومنتهى غاية الشهوات، نشهد أنك المتصور في كل زمان بصورة وفي زماننا بصورة الحسين بن منصور، ونحن نستجيرك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب)[٢].

والحق: أن الحسين بن منصور قد أسرف في كفرياته التي لا يبررها منطق ولا عقل، والمتصفح لديوانه يرى ما لا يراه السامع. وقد رأى الباحث أن ينقل مقتطفات من هذا الديوان تأكيداً لمقولته بالحلول.

يقول:

لبيك لبيك يا سري ونجوائي ... لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي
أدعوك بل انت تدعوني إليك فهل ... ناديت إياك أم ناديت إيائي
يا عين عين وجودي يا مدى هممي ... يا منطقي وعباراتي وإيمائي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري ... يا جملتي وتباعيضي وأجزائي
يا كل كلي وكل الكل ملتبس ... وكل كلك ملبوس بمعنائي [٣]

---

(١) الفرق بين الفرق / عبد القاهر البغدادي / ت: محمد عبد الحميد / المكتبة العصرية ١٩٩٠م.
(٢) المصدر السابق ٢٦٣ .
(٣) ديوان الحلاج ص/٢٦ جمع وتقديم د. سعيد الضناوي / دار صادر / بيروت لبنان ط٢ . ٢٠٠٣ .

وقال:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لا هوته الثاقب
ثم بدى في خلقه ظاهراً ... في صورة الآكل الشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب[١]

وقال:

سألت ربي بعين قلبي ... فقلت من أنت؟ قال أنت[٢]

وقال:

جحودي لك تقديس ... وظني فيك تهويس
وقد حيرني حب ... وظرف فيه تقويس
وقد دل دليل الحب ... أن القرب تلبيس
وما آدم إلاك ... ومن في البين إبليس[٣]

وقال:

اتحد المعشوق بالعاشق ... انقسم المموق للوامق
واشترك الشكلان في حالةٍ ... فامتحقا في العالم الماحق[٤]

وقال بمعنى مشابه لما مر:

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني ... فإذا أنت أنا في كل حال[٥]

---

(١) نفس المصدر ص٣٠ .
(٢) نفس المصدر ص٣١ .
(٣) علق المقدم للديوان د. سعيد الضناوي على هذا البيت بان الحلاج يشير فيه إلى عقيدته القائلة إن الإنسان هو في الحقيقة تجل للذات الإلهية. وهذه المقولة هي مقولة ابن عربي في كتابه فصوص الحكم في حكمة فردية في كلمة محمدية. والأبيات في ص٤٩ .
(٤) الحلاج ص٥٨ .
(٥) ديوان الحلاج ص٦٠ .

وقال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
نحن مذ كنا على عهد الهوى ... يضرب الأمثال للناس نبا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا
أيها السائل عن قصتنا ... لو ترانا لم تفرق بيننا
روحه روحي وروحي روحه ... من رأى روحين حلت بدنا [١]

وقال:

أنا أنت بلا شك ... فسبحانك سبحاني
وتوحيدك توحيدي ... وعصيانك عصياني
وإسخاطك إسخاطي ... وغفرانك غفراني [٢]

وقال:

لست بالتوحيد ألهو ... غير أني عنه أسهو
كيف أسهو، كيف ألهو ... وصحيح أنني هو [٣]

وقال في طاسين الأزل والالتباس من كتاب الطواسين:

ما صحت الدعوى لأحد إلا لإبليس وأحمد رضي الله عنه.. ومدح في هذا الطاسين إبليس على فتوته وعدم تراجعه عن مواقفه بعدم السجود، حيث قال: وما كان في السماء موحد مثل إبليس. ثم مدح فرعون فقال: " فصاحبيَّ وأستاذيَّ إبليس وفرعون، إبليس هُدِّد بالنار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليمِّ فما رجع عن دعواه ولم يقر بالواسطة إليه [٤].

وبعد: هذه عقيدة الحلاج واضحة من نصوصه لا تحتاج إلى مزيد شرح

(١) نفس المصدر ٦٥.
(٢) نفس المصدر ٧٠.
(٣) نفس المصدر ٧٤.
(٤) كتاب الطواسين ملحق بديوان الحلاج ـ طاسين الأزل والالتباس ص١٥٦ـ ١٥٩.

وتعليق، ولكن من هو الحلاج كشخص.

هل هو زاهد شطح في الكلام أم أن الأمر أعمق من ذلك؟، للإجابة على هذا السؤال تظهر ضرورة لإعطاء ترجمة ولو موجزة عن الحلاج.

الحلاج هو: أبو المغيث الحسين بن منصور المولود في قرية الطور في الشمال الشرقي لمدينة البيضاء من مقاطعة فارس بإيران حوالي ٢٤٤هـ... كان أبوه يعمل في حلج القطن ونسجه والمرجح أن لقب الحلاج لحقه بسبب صنعة أبيه... درس على سهل بن عبد الله التستري (من كبار رجال التصوف) ثم انتقل إلى البصرة لينشئ علاقة طيبة بعمرو بن عثمان المكي الصوفي الذي ألبسه خرقة الصوفية، تزوج الحلاج ببنت أبي يعقوب الأقطع منافس عمرو بن عثمان على زعامة المتصوفة بالبصرة فأحدث هذا الزواج خصومة بين الشيخين من جهة وبين عمرو بن عثمان والحسين بن منصور من جهة ثانية[١]. ترك الحسين بن منصور الحلاج البصرة بعد ذلك واتصل بالقرامطة لأن منهجه الفكري يتوافق معهم (حسب قول سامي مكارم). ومما يؤكد ذلك قوله عام ٢٩٩هـ لأحد أتباعه " قد آن الآن أوانكَ للدولة الغراء الفاطمية الزهراء المحفوفة بأهل الأرض والسماء..."[٢] وفي سنة ٣٠١هـ أدخل الحلاج محمولاً مشهراً به على جمل إلى بغداد ونودي عليه هذا أحد دعاة القرامطة[٣].

كما اتصل بغلاة الرافضة وحاول أن يجعل من نفسه باباً لما يسمونه الإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري ـ ولكن الشيعة كذبوه كما كذبوا عدداً من الذين ادعوا البابية للإمام المهدي[٤].

ونقل ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عمرو

---

(١) ديوان الحلاج/ ترجمة الحلاج ص٦+٧ / المعلق.

(٢) نفس المصدر ص ٨.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٨٠.

(٤) انظر بهذا المعنى تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه/ أحمد الكاتب/ ص١٥٤.

ابن عثمان المكي (الذي ألبَسَ الحلاج خرقة التصوف) أنه قال: " كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة وكنت أقرأ القرآن فسمع قراءتي فقال يمكنني أن أقول مثل هذا ففارقته" (١).

ونقل ابن كثير قول أبي يعقوب الأقطع قال: " زوَّجتُ ابنتي من الحسين ابن منصور لما رأيتُ من حُسْن طريقته واجتهاده فبان لي بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال خبيث كافر" (٢) وذكر أنه في عام ٣٠١ جيء بالحلاج إلى بغداد وهو مشهور على جمل وغلام له ينادي عليه هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه، ثم حبس ثم أحضر إلى مجلس الوزير فناظره فإذا هو لا يقرأ القرآن ولا يعرف الحديث ولا الفقه(٣).والعجب كل العجب أن ترى بعد كل هذا من يعتذر عنه، ويبرر له سلوكه، كالغزالي في «مشكاة الأنوار» إذ يقول إشارة: "العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق... فقال بعضهم: أنا الحق، وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شاني، وقال الآخر: ما في الجبة إلا الله، وكلام العشاق في حال السكر يُطوى ولا يُحكى فلما خف عنهم سكرهم وردّوا على سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط العشق:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا (٤)

فالحلاج إذن أحد دهاقنة الفكر الفارسي الذي شنها حرباً على الإسلام من الداخل وليضربه في الصميم، في مسألة التوحيد التي بها بعث الله الأنبياء بها، وعليها كانت المخاصمة بين المسلمين وفئات الضلال الأخرى، من كفار ومشركين ومنافقين وزنادقة.

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ١٣٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ١١ / ٢١.

(٤) مشكاة الأنوار ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص/ ١٢ منشورات محمد علي بيضون/ دار الكتب العلمية.

وكانت معه مجموعات أخرى ضمن عمل جماعي منظم شبيه جداً بعمل جماعة إخوان الصفا إن لم يكن عمله وعمل من معه مرحلة من مراحل تلك الجماعة.

أما « أبو حامد » فقد نصب من نفسه محامي دفاع عن الحلاج وأبي يزيد وغيرهم ممن يقول بأفكار منحرفة على أنها قيلت في غير ساعة الصحو أو قيلت نتيجة ذوق لا يمكن للآخرين أن يدركوه، أو قيلت نتيجة حصول معرفة لدنية خاصة بالعارفين من الصوفية، في حين ترى العنصرية تقطر من بعض عباراته ضد أجناس غير الفرس ،كقوله في معرض حديثه عن فضل العلم: " حتى أن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لمشايخهم"(١)، وقوله في حديثه عن شرف العقل: "ولذلك ترى أن الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع"(٢).

وليس هذا إلا تأكيداً ضمنياً لما يعتقدونه، خصوصاً وقد رأيناه في كتاب المنقذ من الضلال يعتبر الطريق الأصلح هو طريق الصوفية.

وإن كان « أبو حامد » قد عكف على قراءة الحديث في أخريات أيامه ومات والبخاري على صدره كما يقال، فإنا نسأل الله له وللمسلمين المغفرة والرضوان، وحباً لتوبته، يجب أن يتم التنبيه إلى كتبه التي خلفت عدداً لا يستهان به من البدع حتى لا ينال وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

على أن الحلاج ليس وحيداً في هذا الاتجاه ، فالشبلي يحمل نفس الاتجاه ولكنه لم يصرح.

فقد نقل طه عبد الباقي سرور في مقدمة كتابه (الحلاج) قول الشبلي كنت أنا والحلاج شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت. ويرى د. أبو الوفا التفتازاني أن ممن يندرج في الحلول أبو الحسين النوري المتوفى عام ٢٩٥هـ ، ومحمد بن موسى الواسطي الفرغاني المتوفي عام ٢٢٠ هـ (٣).

(١) إحياء علوم الدين ١ / ١٢ . (٢) إحياء علوم الدين ١ /٨٣ .
(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١١٨ هامش الصفحة.

وحـــدة الوجـــود

وحدة الوجود مقولة فلسفية أولاً، صوفية ثانياً، وهي عند الصوفية أنه لا وجود حقيقة إلا لله ، وكل الموجودات وهم، ولا تصبح حقيقة إلا بتجليات الإله فيها.

والصوفية يتلاعبون كثيراً بالألفاظ كي لا يقروا هذه الحقيقة، ومثال التلاعب هذا واضح في كلام صوفي كبير هو الشيخ مصطفى كمال الشريف، حيث ينقل عنه الشيخ عبد القادر عيسى[١] قوله: " الوجود واحد لأنه صفة ذاتية للحق سبحانه، وهو واجب فلا يصح تعدده والموجود هو الممكن وهو العالم فصح تعدده باعتبار حقائقه وقيامه إنما هو بذلك الوجود الواجب لذاته فإذا زال بقي الوجود كما هو فالموجود غير الوجود، فلا يصح أن يقال الوجود اثنان وجود قديم ووجود حادث إلا أن يراد بالوجود الثاني الموجود من إطلاق المصدر على اسم المفعول فعلى هذا لا يترتب شيءٌ من المحاذير التي ذكرها أهل النظر على وحدة الوجود القائل بها أهل التحقيق... والحس لا يرى إلا الهياكل أي (الموجود) والروح لا تشهد إلا الوجود"[٢].

علق الشيخ عبد القادر عيسى قائلاً: "إن الوجود نوعان: وجود قديم أزلي، وهو واجب وهو الحق سبحانه وتعالى... ووجود جائز عرضي ممكن، وهو وجود من عداه من المحدثات وإن القول بوحدة الوجود، وأن الوجود واحد هو الحق تعالى يحتمل معنيين:

أحدهما حق، والثاني كفر ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان:

[١] **الفريق الأول** : أرادوا به اتحاد الحق بالخلق وأنه لا شيء في هذا الوجود

---

(١) صوفي من سوريا مدينة حلب توفي في أوائل التسعينات من القرن العشرين.

(٢) حقائق عن التصوف/ عبد القادر عيسى ص٥٥٣ / مكتبة دار العرفان/ حلب/ سوريا ـ ط٥ / ١٩٩٣ نقلاً عن: رسالة وحدة الوجود (مصطفى كامل الشريف) ص٢٧-٢٨ .

سوى الحق وأن الكل هو وأنه هو الكل، وأنه عين الأشياء.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه

فقوله هذا كفر وزندقة وأشد ضلالة من أباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان [١].

وقال أيضاً: "وقد شدد الصوفية النكير على قائله وأفتوا بكفره وحذروا الناس من مجالسته".

قال العارف بالله أبو بكر محمد بناني رحمه الله تعالى:

"فاحذر يا أخي كل الحذر من الجلوس مع من يقول: ما ثَمَّ إلا الله ويسترسل مع الهوى، فإن ذلك هو الزندقة المحضة، إذ العارف المحقق إذا صح قدمه في الشريعة ورسخ في الحقيقة وتفوه بقوله ما ثَمَّ إلا الله [٢] لم يكن قصده من هذه العبارة إسقاط الشرائع وإهمال التكاليف حاشا لله أن يكون هذا قصده"[٣].

[٢] **الفريق الثاني**: قالوا ببطلان وكفر ما ذُكِرَ من أن الخالق عين المخلوق، وإنما أرادوا بوحدة الوجود وحدة الوجود القديم الأزلي وهو الحق سبحانه فهو لا شك واحد منزه عن التعدد، ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضي المتعدد، وهو الكون الحادث نظراً لأن وجوده مجازي وفي أصله عدمي لا يضر ولا ينفع فالكون

---

(١) نفس المصدر ٥٥٣-٥٥٤.

(٢) **يلاحظ أن هذا الكلام يحمل عدة متناقضات:**

الأولى: أنه بعد أن صرح أن القول بوحدة الوجود زندقة (ما ثم إلا الله) اعتبر هذه الزندقة خاصة بفئة من الناس وأخرج العارفين منها وهم الذين يجب أن يدركوا معاني الألفاظ مهما دقت هذه الألفاظ.

الثانية: أنه هرب من المسألة في قوله: أن من قال «ما ثم إلا الله» منهم لم يكن قصده إسقاط الشرائع. علماً أنه ليست هذه النقطة هي محور البحث فيما طرحه، وإنما البحث في وحدة الوجود فلم «يبين البناني» ما هو قصد عارفيهم عندما يطلقون مثل هذه الألفاظ علماً أنهم هم الذين استحدثوها وهم أول من يجب أن يحاسب عليها.

(٣) المصدر السابق ٥٥٤.

معدوم في نفسه [١] ، هالك فانٍ في كل لحظة قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[القصص : ٨٨] وإنما يظهره الإيجاد ويثبته الإمداد، الكائنات ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته وإنما يمسكه سر القيومية فيه [٢] .

ولقد ربطت أغلب الدراسات الفلسفية الدينية فكرة وحدة الوجود بشخص ابن عربي أولاً ثم بسلطان العاشقين حسب وصفهم (ابن الفارض)، ولو تمت مراجعة جذور هذه الفكرة لتبين أنها أقدم من هذين الصوفيين بمدة ليست قصيرة .

فأوائل المقولات التي صرحت بوحدة الوجود منسوبة لأبي حمزة الصوفي[٣] المعاصر للإمام لأحمد بن حنبل ، فقد قال عنه صاحب سير أعلام النبلاء : " قلت ولأبي حمزة انحراف وشطح . . . ففي الحلية عن عبد الواحد بن بكر حدثنا محمد بن عبد العزيز سمعت أبا عبد الله الرملي يقول : " تكلم أبو حمزة في جامع طرسوس فقبلوه، فصاح غراب فزعق أبو حمزة لبيك لبيك فنسبوه إلى الزندقة وقالوا حلولي وشهدوا عليه ، وطُرِدَ وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع : هذا فرس الزنديق " [٤] .

وقال أبو نصر السراج صاحب اللمع: بلغني أنه دخل على الحارث المحاسبي

---

(١) إن هذا تلاعب بالألفاظ أيضاً فوصف العالم المحدث بأنه مجازي وأنه معدوم في نفسه وإنما إثباته قائم بإمساكه وإمساكه كائن بسر القيومية فيه، و(في) هذه هي الظرفية، والهاء عائدة على الوجود المحدث . وبالتالي فسريان سر القيومية سارٍ في الوجود الذي سموه مجازياً فوجوده الحقيقي هو بهذا السريان ومن هنا جاءت وحدة الوجود .

(٢) المصدر السابق ص٥٥٥ وكلام عبد القادر عيسى ليس انسحاباً إنما هو تأكيد لنظرية وحدة الوجود فقوله عن الوجود العرضي أن وجوده مجازي هو معنى نظرية الفيض التي تقول بأن الموجودات وهم ووجودها بوجود الروح الإلهي فيها وإذا كان وجودها وهم فلا إثنينية فالوجود واحد .

(٣) أبو حمزة البغدادي وقيل الخرساني : واسمه محمد بن إبراهيم من كبار شيوخهم صحب السري السقطي وبشر الحافي ويقال أنه حضر مجلس أحمد ابن حنبل توفي ٢٨٩هـ، انظر طبقات الصوفية ص٢٩٥ وانظر طبقات الحنابلة ١ / ٢٦٨ تاريخ بغداد ١ / ٣٩٠ سير اعلام النبلاء ١٣ / ١٦٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣ / ١٦٦-١٦٧ .

فصاحت شاة (ماع) فشهق وقال لبيك لبيك يا سيدي ، فغضب الحارث وأخذ السكين وقال : إن لم تتب أذبحك فردَّ أبو حمزة : أنت إذا لم تحسن أن تسمع هذا الذي أنت فيه فلم لا تأكل النخالة بالرماد [١] .

وأورد هذه القصة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في ترجمة الحارث المحاسبي عند تحقيقه « رسالة المسترشدين » للمحاسبي . وسمع أبو الحسين النوري صوت المؤذن فقال : طعنة وشم الموت، وسمع نباح الكلاب فقال : لبيك وسعديك، وأبو الحسين من أقران الجنيد ، وأبي حمزة .

وهذه الأقوال غاية الوضوح في القول بوحدة الوجود، لأن أبا حمزة يرى الله في كل شيء : في الشاة، و في الغراب وليس هذا قول أهل الاتحاد والحلول، لأن الآخرين يرون الأمر عن مجاهدة وفناء في الاتحاد وعن اختيار في الحلول، والشاة والغراب ليسا مختارين ولا يملكان المجاهدة التي يملكها الشيخ أبو حمزة .

والعجب أن أبا حمزة الذي أقر بالألوهية للشاة والغراب نفاها عن نفسه فجعل من نفسه عبداً يقول للشاة لبيك، وهنا قد يقول قائل : أين الوحدة؟! ، إذا كانت الوحدة كاملة لا نبغى أن يكون أبو حمزة إلهاً أيضاً ، وبالتالي فقد تساوى بالألوهة مع الغراب والشاة فلا داعي لأن يقول لهما لبيك لبيك، والجواب على هذه أن المسألة تعليمية، فهو يلقي درساً في جامع طرسوس ويريد أن يفهم الآخرين أن الألوهة في كل شيء حتى في الشاة والغراب، والله أعلم .

وممن تكلم في وحدة الوجود مبكراً « أبو سعيد الخراز » واسمه أحمد بن عيسى من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري وسرياً السقطي وبشر بن الحارث وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم، قيل أنه أول من تكلم في علم الفناء مات سنة ٢٧٩هـ [٢] ، نسب ابن عربي له في فصوص الحكم (فص حكمة قدوسية

---

(١) نفس المصدر ٣ / ١٦٧ ونقل القصة صاحب اللمع .

(٢) طبقات الصوفية ص٢٢٨ ، وقال عنه الجنيد : لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا . انظر صفوة الصفوة ٢ / ٢٤٥ .

في كلمة إدريسية) أنه قال: " إن الله لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو عين ما ظهر وعين ما بطن في حال ظهوره وما ثَمّ من يراه غيره وما ثَم من يبطن عنه فهو ظاهر لنفسه باطن عنه"، قال ابن عربي في تأكيد هذه الوحدة : وهو المسمى أبو سعيد الخراز، وغير ذلك من أسماء المحدثات (١).

وقال في سير أعلام النبلاء: " قال السلمي:

أنكر أهل مصر على أبي سعيد وكفروه بألفاظه، فإنه قال في كتاب السر: فإذا قيل لأحدهم ما تقول؟ قال الله، وإذا تكلم قال الله ، وإذا نظر قال الله ، فلو تكلمت جوارحه قالت الله وأعضاؤه مملوءة من الله ، فأنكروا عليه هذه الألفاظ وأخرجوه من مصر، قال السلمي: ثم ردَّ عزيزاً (٢) .

ثم جاء أبو حامد الغزالي ليدافع عمّن سبقه ويمهد الطريق لمن لحقه، فتكلم في الفناء وأكثر في ذلك، وصحح طريق الصوفية غير المعقولة، وتجاوز ذلك للكلام في الوحدة من خلال قصيدته التائية المشهورة التي نسج بعدها ابن الفارض تائية أكبر على نفس الوزن والقافية، فقال:

ظهرت فلما أن بهرت تجلياً ... بطنت بطوناً كاد يقضي بردتي
فإن قلت لم أبصرك في كل صورة ... أراها أحالت ذاك عين بصيرتي
وإن قلت أني مبصر لك أنكرت ... مقالي ولم تشهد بذلك مُقْلَتي
وكل فعال: لم أكن متقرباً ... إليَّ به أعظمت فيه خطيتي
وهل أنا إلا أنت ذاتاً ووحدةً ... وهل أنت إلا نفس عين هويتي
ولولا اعتبار الجسم بالنسبة التي ... إليه له ما صح عني سيرتي
ولست بذي شكل فيوجب كثرة ... لذاتي ولا جزءاً فتمكن قسمتي(٣)

(١) فصوص الحكم ص٧٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٤٢١ .
(٣) تائية الغزالي وهي ٣٤٣ بيت: النفحات الغزالية، ص١٦٨-١٧١ والأبيات غير متسلسلة ومطلع =

وبيَّن في قصيدته هذه أنه خرج عن الشرع فقال:

فدنت بأمر حرمته شريعتي وأحييت حكماً قد أماتته سُنَّتي

ثم عذر نفسه كما كان قد عذر الآخرين في مقولاتهم المخالفة للشرع كل المخالفة في أماكن أخرى فقال:

ألا لا تَلُمني إن شَطَحْتُ فإنه قليل لسكرٍ حل بي منك سكرتي

ولكن بالرغم من المقولات المبعثرة هنا وهناك في كتب الصوفية مما يشير إلى وحدة الوجود فإن هذا المذهب لم يتأصل بشكل واضح إلا في كتابات ابن عربي.

فابن عربي يرى ألا موجود إلا الله، فهو الوجود الحق والوجود المطلق، وجوده أزلي أبدي بل هو الوجود كله ولا موجود سواه.(١)

قال ابن عربي في فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية: "ومن أسمائه الحسنى (العلي) على من؟ وما ثمة إلا هو فهو العلي لذاته عن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلوه لنفسه وهو من حيث الوجود عين الموجودات.

واختصر أفكاره بهذا الفص في هذه الأبيات:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقاً بذاك الوجه فاذَّكروا

من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته وليس يدريه إلا من له بصر

جمع وفرق فإن العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقى ولا تذر(٢)

وقال في فص (حكمة مهيمية في كلمة إبراهيمية): إنما سمي الخليل خليلاً

= القصيدة:

بنور تجلي وجه قدسك دهشتي وفيك على أن لا خفا فيك حيرتي

وآخرها:

فسبحان من يحي بقدرته الذي يميت كما أحياه أول مرة

وانظر ديوان حجة الإسلام الغزالي جمع وترتيب محمد عبد الرحيم /دار قتيبة/ط ١ / ٢٠٠٠.

(١) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها/ د. عرفان عبد الحميد فتاح ص٢٦٩.

(٢) فصوص الحكم ـ الفص الإدريسي ص/٧٧ شرح مصطفى بن سليمان بالي زاده/ دار الكتب العلمية/ تعليقات فادي أسعد نصيف.

لتخلله وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلهية، يقول الشاعر: " وتخللت مسلك الروح مني.. ".

وبه سمي الخليل خليلاً كما يتخلل اللون المتلون،فيكون العرض بحيث جوهره ، ما هو كالمكان والمتمكن ، أو لتخلل الحق وجود صورة إبراهيم عليه السلام [١] ... وأطال في شرح الفص واصلاً إلى نتيجة قالها الشارح وهي: "لما بيَّن المقامين وهما أن يكون الحق ظاهراً والعبد باطناً ، وأن يكون العبد ظاهراً والحق باطناً ، أدرج نتائج المذكورات مع المعاملات بين الحق والعبد في الأبيات تسهيلاً للطالبين فقال[٢] :

فيحمدني وأحمده ... ويعبدني وأعبده
ففي حالٍ أقربه ... وفي الأعيان أجحده
فيعرفني وأنكره ... وأعرفه فأشهده
فإني بالغني وأنا ... أساعده وأسعده
لذاك الحق أوجدني ... فأعلمه وأوجده
بذا جاء الحديث لنا ... وحقق فيَّ مقصده [٣]

وقال في فص حكمة حقية في كلمة إسحاقية:

فللواحد الرحمن في كل موطن ... من الصور[٤] ما يخفى وما هو ظاهر
فإن قلت هذا الحق قد تك صادقاً ... وإن قلت أمراً آخراً أنت عابر
فما حكمه في موطن دون موطن ... ولكنه بالحق للخلق سافر

---

(١) المصدر السابق ص٨٣، وشعر ابن عربي هنا يتفق مع كلام مصطفى كمال الشريف قبل صفحات قليلة بأن حقيقة الوجود واحدة. فواجب الوجود بالنظر إلى ذاته واحد وبالنظر إلى تجلياته كثرة. ولكن هو هو.

(٢) أي ابن عربي.

(٣) الفصوص ص٩٠-٩١ .

(٤) الصور جمع صورة ، وسَكَّن واوها لضرورة الشعر.

إذا مـــا تجلى للعـــيـــون تردُّه عـــيـــون ببـــرهان عليـــه تثـــابر
ويقبل في مجلى العيون وفي الذي يسـمى خـيـالاً والصـحـيح النواظر

ثم يعلق ابن عربي على هذا المعنى قائلاً: يقول أبو يزيد (أي البسطامي) في هذا المقام لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس به. وهذا وسع أبي يزيد في عالم الأجسام.(١)

قال ابن عربي: ولقد نبهنا أبو يزيد على هذا المقام فقلنا شعراً:

يا خـالق الأشـيـاء في نفـسـه أنـت لما تـخـلـقـــه جـــامع
تخلق مـــا لا ينتـــهي كـــونه فـــيك فـــأنت الضـــيق الواسع
لو أن مـــا قـــد خلق الله مـــا لاح بقلبي فـــجـــره الســـاطع
من وسع الحق فـــمـــا ضـــاق عن خلق فكيف الأمـــر يا ســـامع(٢)

قال داود بن محمود القيصري أحد شراح فصوص الحكم(٣). أي من وسع الحق مع أسمائه وكمالاته فما يضيق عن الخلق لأن الحق هو الذي يتعين ويظهر في المظاهر الخلقية بحسب تجليات أسمائه وصفاته، فالخلق عين الحق فمن وسعه وسع الخلق كله(٤).

ويرى ابن عربي أن أعظم وأتم التجليات تجلي الله في المرأة.

فيقول: " في فص حكمة فردية في كلمة محمدية: عندما يشرح حديث الرسول الكريم ﷺ: **(حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطِّيب وجُعِلَت**

---

(١) فصوص الحكم ـ ص١٠٠-١٠١.
(٢) فصوص الحكم ص١٠١-١٠٢.
(٣) لفصوص الحكم شروح كثيرة والنسخة المعتمدة للاقتباس في هذا البحث هو شرح مصطفى بن سليمان بالي زادة الحنفي المتوفى ١٠٦٩هـ أما النص المشار إليه الآن فهو منقول من شرح آخر هو شرح داود بن محمود القيصري/ طبع دار أنوار الهدى ـ إيران.
(٤) شرح فصوص الحكم المسمى مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم شرح داود بن محمود القيصري تحقيق دار الاعتصام ط١ ١٤١٦هـ، جـ١ / ٤٠٣.

قُرَّة عيني في الصلاة)[١] ، فحبب إليه النساء فإن الله أحب من خلقه على صورته وأسجد له ملائكته النوريين على عظم قدرهم ومنزلتهم وعلو نشأتهم الطبيعية، فمن هناك وقعت المناسبة والصورة أعظم مناسبة وأجلها وأكملها فإنها زوجت أي شفعت وجود الحق كما كانت المرأة شفعت بوجود الرجل فصيرته زوجاً فظهرت الثلاث حق ورجل وامرأة، فحن الرجل إلى ربه الذي هو أصله حنين المرأة إليه فحبب إليه النساء كما أحب الله من هو على صورته فما وقع الحب إلا لمن تكون عنه وقد كان حبه لمن تكون منه وهو الحق، فلهذا قال: حبب إلي ولم يقل أحببت من نفسه لتعلق حبه بربه الذي هو على صورته، حتى في محبته لامرأته فإنه أحبها بحب الله إياه، تخلقاً إلهياً، ولما أحب المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها ولذلك أمر بالاغتسال منه فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة، فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فطهره بالغسل ليرجع بالنظر إليه في من فني فيه إذ لا يكون إلا ذلك ، فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوده في منفعل وإذا شاهده في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده في فاعل وإذا شاهده من نفسه من غير استحضار صورة ما تكوَّن عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو، هو فاعل ومنفعل ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة ،فلهذا أحب النساء لكمال شهود الحق فيهن إذا لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً، فإن الله بالذات غني عن العالمين، وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً ولم تكن الشهادة إلا في مادة فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح وهي نظير

---

(١) رواه أحمد في المسند وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج أحاديث المسند بدون لفظة (ثلاث).

التوجه الإلهي عند من خلقه الله على صورته فيرى فيه صورته بل نفسه" (١).

ثم قال: " فلذلك ذكر النساء فما أحبهن إلا بالمرتبة وأنهن محل الانفعال فهن له كالطبيعة للحق التي فتح فيها صور العالم بالتوجه الإرادي والأمر الإلهي الذي هو نكاح في عالم الصورة العنصرية... وكل ذلك نكاح الفردية الأولى في كل وجه من هذه الوجوه، فمن أحب النساء على هذا الوجه فهو حب إلهي ومن أحبهن على جهة الشهوة الطبيعية خاصة نَقَصَهُ علم هذه الشهوة فكان صورة بلا روح عنده وإن كانت تلك الصورة في نفس الأمر ذات روح ولكنها غير مشهودة لمن جاء لامرأته أو لأنثى حيث كانت بمجرد الالتذاذ لكن لا يدري لمن التذاذه فجهل ما يجهل الغير منه ما لم يسم هو بلسانه حتى يعلم. كما قال بعضهم:

صح عند الناس أني عاشق ... غير أن لم يعرفوا عشقي لمن

فالجاهل... غاب عن روح المسألة فلو علمها لعلم بمن التذ ومن التذ، وكان كاملاً (٢).

والحق: أن الباحث لو أراد الإكثار من النقول للتدليل على وحدة الوجود عند ابن عربي لوجد في كل مبحث من مباحث كتبه الأساسية ما يدل على ذلك وخصوصاً في الفتوحات المكية وفصوص الحكم والرسائل.

وهذا مثال من الفتوحات:

فما ثَمَّ توحيد ولا ثَمَّ كثرةٌ ... على غير ما قلناه فانظر تر الحقا

وقل بعد هذا ما تشاء وترتضي ... وثبت له الجمع المحقق والفرقا

فما الأمر إلا بين خلق وخالقٍ ... فقل إن تشأ حقاً وقل إن تشأ خلقًا (٣)

---

(١) فصوص الحكم/ شرح بالي زاده ص ٣١٥-٣١٧، وانظر كتاب ابن عربي الآخر (الوصايا) طبع مؤسسة الأعلمي ـ لبنان ص٢٦-٢٨ .

(٢) نفس المصدر ٣١٧-٣١٨ .

(٣) الفتوحات المكية/ ابن عربي/ ج٤ / ٢٩٥ طبعة دار إحياء التراث العربي بتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي ط١، ١٩٩٨ .

وقال في الفتوحات:

فمن كان بيت الحق فالحق بيته ... فعين وجود الحق عين الكوائن[١]

إن كتاب «الفتوحات المكية» الذي حوى مثل هذه الأشعار يقول فيه مؤلفه... فوالله ما كتبت منه حرفاً إلا عن إملاء إلهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روح كياني... ثم قال:

الله أنشأ من طي وخولان ... جسمي فعدلني خلقاً وسواني
وأنشأ الحق لي روحاً مطهرة ... فليس بنيان غيري مثل بنياني
إني لأعرف روحاً كان ينزل بي ... من فوق سبع سموات بفرقان[٢]

وهذا مثال من الكتاب الموسوم (رسائل ابن عربي):

قال في كتاب الألف وهو كتاب الأحدية، وهو الرسالة الثالثة من مجموعة الجزء الأول من الرسائل: "... قال اليهود لمحمد ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص: ١]، فجاء بالنسب ولم يقولوا صف ولا انعت. ثم إن الأحدية قد أطلقت على كل موجود من إنسان وغيره لئلا يطمع فيها الإنسان فقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقد أشرك المشركون معه الملائكة والنجوم والأناسي والشياطين والحيوانات والشجر والجمادات، فصارت الأحدية سارية في كل موجود فزال طمع الإنسان من الاختصاص، وإنما عمت جميعَ المخلوقات الأحديةُ للسريان[٣] الإلهي الذي لا يشعر به خلق إلا من شاء الله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقضاؤه لا سبيل أن يكون في وسع مخلوق أن يرده فهو ماضٍ نافذ، فما عبد عابد غيره سبحانه، فإذن

(١) نفس المصدر ٤ / ١١.
(٢) نفس المصدر ٣ / ٤٤٢.
(٣) السريان الإلهي هو أن تسري الروح الإلهية في الأشياء والأشخاص كما يسري ماء الورد في الورد أو كما يسري اللون في المتلون.

الشريك هو الأحد، وليس المعبود هو الشخص المنصوب وإنما هو السر المطلوب وهو سر الأحدية وهو مطلوب لا يُلحق، وإنما يُعبد الرب والله تعالى الجامع، ولهذا أشار لأهل الأفهام ﴿ ولا يُشرِكْ بعبادة ربّه أحداً ﴾ فإن الأحد لا يقبل الشركة... فكل ما في الوجود واحد ولو لم يكن واحداً لم يصح أن تثبت الوحدانية عنده سبحانه فإنه ما أثبت لموحده إلا ما هو عليه [١].

ومثل ابن عربي في الاعتقاد الكثير ممن قرأ كتبه وأخذ أفكاره ومنهم داوود ابن محمود القيصري صاحب الشرح المسمى مطلع نصوص الكلم في معاني فصوص الحكم الذي شرح الفصوص بناء على اطلاع إلهي. إذ يقول: "وكان الحق قد أطلعني على معانيه المتساطعة أنوارها وألهمني بفحاويه المتعالية أسرارها... وخصَّني بالعلم من بين سائر الأصحاب من غير تأمل سابق فيه... إلخ" [٢].

وقدم القيصري لشرح الفصوص باثني عشر بحثاً جعلها كالمقدمة. أولها في الوجود قال فيه: " اعلم أن الوجود من حيث (هو هو) غير الوجود الخارجي والذهني إذ كل منهما نوع من أنواعه فهو من حيث (هو هو) أي لا بشرط شيء غير مقيد بالإطلاق والتقييد ولا هو كلي ولا هو جزئي ولا عام ولا خاص ولا واحد بالوحدة الزائدة على ذاته ولا كثير، بل تلزمه هذه الأشياء بحسب مراتبه ومقاماته... والوجود من حيث (هو هو) واحد فلا يمكن أن يتحقق في مقابلته وجود آخر وبه يتحقق الضدان ويتقوم المثلان بل هو الذي يظهر بصورة الضدين وغيرهما ويلزم منه الجمع بين ... النقيضين وهو خير محض[٣] وقوامه بذاته لذاته... وهو حقيقة واحدة لا تكثر فيها وكثرة ظهوراتها وصورها لا تقدح في وحدة ذاتها،... فكونه عين الأشياء بظهوره في ملابس أسمائه وصفاته في عالمي

---

(١) مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم ١/٦.

(٢) رسائل ابن عربي، كتاب الألف ص ٣-٤، ط ١، دار إحياء التراث العربي/ وهذه الطبعة نسخ عن طبعة دار المعارف العثمانية/ حيدر أباد عام ١٣٦١هـ..

(٣) مر بالبحث أن هذه التسمية من إيجاد أفلاطون فهو الذي وصف الله بالخير الأسمى والخير بالذات والخير المحض.

العلم والعين ، وكونه غيره باختفائه في ذاته واستعلائه بصفاته عما يوجب النقص والشين وتنزهه عن الحصر والتعيين وتقدسه عن سمات الحدوث والتكوين، . .إلخ [١] .

ثم قال: " تنبيه: الوجود ليس بجوهر ولا عرض لما مر وكل ما هو ممكن فهو إما جوهر وإما عرض، ينتج عن ذلك أن الوجود ليس بممكن فتعين أن يكون واجباً [٢] وقال الشارح شعراً:

حقيقة ظهرت في الكون قدرتها ... فأظهرت هذه الأكوان والحجبا
تنكَّرت بعيون العالمين كما ... تعرفت بقلوب عُرفت أدبا
فالخلق كلهم أشياء طلعتها ... والأمر أجمعهم كأنواله نقبا
ما في التستر في الأكوان من عجب ... بل كونها عينها مما ترى عجبا [٣]

وممن قال بالوحدة أيضاً «الهروي» صاحب كتاب «منازل السائرين» الذي قال شعراً:

ما وحد الواحَد من واحدٍ ... إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد [٤]

وهذه الأبيات علق عليها ابن القيم في مدارج السالكين قائلاً:

" ... فرحمة الله على أبي إسماعيل فتح للزنادقة باب الفكر والإلحاد فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم إنه لمنهم وما هو منهم ، وغرَّه سراب الفناء فظن أنه لجة بحر المعرفة وغاية العارفين وبالغ في تحقيقه وإثباته فقاده قسراً إلى ما ترى [٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣ - ١٨ ـ باختصار.
(٢) نفس المصدر ١/ ص ٢٠ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٥٨ .
(٤) منازل السائرين/ الهروي
(٥) مدارج السالكين ١ / ١٤٧-١٤٨ باختصار.

وممن قال بالوحدة أيضاً ابن سبعين[١] الذي يعتبر صاحب مذهب في التصوف الفلسفي يعرف بالوحدة المطلقة، والفكرة الأساسية فيه أن الوجود واحد وهو وجود الله فقط أما سائر الموجودات الأخرى فوجودها عين وجود الواحد فهي غير زائدة عليه بوجه من الوجوه، والوجود بذلك في حقيقته قضية واحدة ثابتة[٢].

ومن أقواله في ذلك مخاطباً أحد تلاميذه:

"جميع ما توجه الضمير إليه أذكره به ولا تبال، وأي شيء يخطر ببالك سمه به من اسمه (الوجود)... الله لا اسم له إلا الاسم المطلق أو المفروض فإن قلت نسميه بما سمى به نفسه أو سماه نبيه يقال لك: من سمى نفسه الله قال لك: أنا كل شيء وجميع من تنادي أنا"[٣].

ومن أقواله: "... ولا حول ولا قوة إلا بالساري بذاته في أفعاله عن أسمائه بصفاته، أحيا فتسمى بالحي وأحاط فتسمى بالعالم... وهو عين كل ما ظهر فحق له أن يتسمى بالظاهر وهو معنى كل معنى فحق له أن يتسمى بالباطن"[٤].

وقد خلف ابن سبعين طريقة صوفية تبنت أفكاره عرفت «بالسبعينية» لها صلتها الواضحة بالفلسفة بحسب سند الخرقة الذي أورده أبو الوفا التفتازاني عن تلميذ ابن سبعين« الششتري» إذ يورد في سند الطريقة هرمس وسقراط وأفلاطون وأرسطو والإسكندر الأكبر والحلاج... وقضيب البان والسهروردي

---

(١) قال الذهبي في تاريخ الإسلام: وأما ابن سبعين فهو عبد الحق بن إبراهيم، الشيخ الضال أبو محمد المريسي الصوفي الفيلسوف وله كلام في الحقيقة على طريقة الاتحاد مات بمكة سنة ٦٦٩ ... ومازال ابن سبعين بحمد الله ممقوتاً عند علماء الإسلام هو ومن من كان على خبث نحلته،... والسبعينية فقهاء زنادقة يتركون الصلاة ويفعلون العظائم ولهم رموز وإشارات أكره أن أتفوه بها وفي لسان الميزان ٣ / ٣٩٢ نقل عنه ابن حجر قوله: لقد كذب ابن أبي كبشة (يقصد الرسول ﷺ) حيث قال لا نبي بعدي أ.هـ. وحكم بردته وقتله بسبب مقولته هذه ففر من بلاد الأندلس واستقر بمكة إلى أن مات.

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي. د. أبو الوفا التفتازاني / ص٢٠٩.

(٣) رسائل ابن سبعين ص١٨٤.

(٤) المرجع السابق نفسه ١٩٠.

المقتول (الذي قتله صلاح الدين لزندقته) وابن الفارض وابن مسرة وابن سينا وابن رشد والتلمساني .

وقد علق د . التفتازاني على هذا السند أنه بهذا يكّون طريقة تلفيقية لأنه جمع بين مذاهب شتى [١] .

والذي يبدو من هذا السند أنها طريقة فلسفية خالصة . جمعت بين فلسفة المشرق من خلال (هرمس)، وفلسفة اليونان من خلال (سقراط ـ أفلاطون ـ أرسطو)، والفلسفة الباطنية مقلدة أرسطو من خلال ابن سينا ، والوحدة المطلقة من خلال السهروردي، والعشق الإلهي المؤدي إلى الوحدة المطلقة من خلال ابن الفارض ، وقد انتشرت هذه الطريقة في مصر وهاجمها شيخ الإسلام ابن تيمية هجوماً شديداً أثناء زيارته لمصر حيث كانت الطريقة قد بدأت بالانتشار هناك .

وقد ذكر ذلك أخو شيخ الإسلام ابن تيمية الملقب شرف الدين في رسالة أرسلها إلى أخيهما الثالث بدر الدين في دمشق يطمئنه عن الأحوال إذ قال:

"من أخيه (أي من أخي الشيخ تقي الدين ابن تيمية) عبد الله بن تيمية سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام الجليل الكبير بدر الدين . . . وبعد : " فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومننه الشاملة . . . فنسأل الله أن يوزعنا شكرها . . . ومنها نزول الأخ الكريم بالثغر المحروس (الإسكندرية) فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدون بها الإسلام وأهله وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة . . . ومازالوا عند الله وعند العارفين من المؤمنين سود الوجوه يتقطعون حسرات وندماً على ما فعلوه، وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسنة رسوله والحط من أعدائهما أهل البدع والضلالات والكفر والجهالات خصوصاً أخبث الملاحدة والاتحادية ثم الجهمية، واتفق أن وجد بها إبليس الحادهم قد باض وفرخ ونصب بها عرشه

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١٩١ .

ودوخ وأضل بها فريقي السبعينية [١] والعربية [٢]. فمزق الله بقدومه الثغرَ جموعهم شذر مذر... [٣].

وقال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

"وهؤلاء عندهم ما ثَمَّ وجود لغيره ، وهم من أعظم الناس تناقضاً فإنهم يقولون ما ثَمَّ ولا غير ولا سوى وتقول السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين : لا إله إلا الله " [٤].

يؤكد هذا القول د. أبو الوفا التفتازاني (على الجملة لا يثبت ابن سبعين إلا وجوداً واحداً لا اثنينية معه ولا كثرة بوجه من الوجوه.[٥]

وممن قال بالوحدة أيضاً عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب الإنسان الكامل وقد ظهرت وحدة الوجود من مقدمته حيث قال: " الحمد لمن قام بحق حمده اسم الله فتجلى في كل كمال استحقه واقتضاه، وحصر بنقطة خال[٦] جلاله حروف الجمال واستوفاه، سمع حمد نفسه مما أثنى عليه المعبود، فهو الحامد والحمد والمحمود حقيقة الوجود المطلق ، عين هوية المسمى بالخلق والحق... والموجود بكماله من غير حلول في كل ذرة، اللائح جمال وجهه في كل غرة... ذات حقيقة الجواهر والأعراض، صورة المعاني والأغراض، هوية العدم والوجود، إنية عين كل والد ومولود..." [٧].

---

(١) السبعينية أتباع ابن سبعين.

(٢) العربية أتباع ابن عربي.

(٣) العقود الدرية ـ محمد بن عبد الهادي المقدسي ـ ص٢٨٨-٢٩٠ باختصار/ دار الكتاب العربي ت. محمد حامد الفقي.

(٤) مجموع الفتاوى ١٣ / ١٩٦ .

(٥) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص٢١٠ .

(٦) الانسان الكامل / عبد الكريم الجيلي ١ / ٣ /دار الفكر /بيروت/ لبنان.

(٧) نفس المصدر١/ ٣ .

وقال في قصيدته العينية التي أورد بعضاً منها في الكتاب المذكور:

فأنت الورى حقاً وأنت أمامنا ... وأنت الذي يعلو وما هو واضع
وما الخلق في التمثال إلا كثلجةٍ ... وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغيران في حكم دعته الشرائع
ولكن يذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع[١]

وقال: " ثم أعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي... فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكن أن يرى صورة نفسه إلا بمرآة الاسم (الله) فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق، فإن الحق تعالى أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه وصفاته إلا في الإنسان الكامل... واعلم أن الإنسان الكامل تنقسم جميع الأسماء والصفات له قسمين: فقسم يكون عن يمينه كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وأمثال ذلك، وقسم يكون عن يساره، كالأزلية الأبدية والأولية والآخرية وأمثال ذلك"[٢].

وممن قال بالوحدة أيضاً، عبد الرحمن العيدروسي[٣] في رسالته الموسومة بـ (لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود) ابتدأها بقوله: " أما بعد فهذه لطائف تتعلق بوحدة الوجود القائل بها أهل المعارف".

---

(١) نفس المصدر ١ / ٩٠: وكلامه هذا مأخوذ من كلام طاليس الفيلسوف اليوناني والمتوفى ٥٥٠ ق.م وهو أول من عرفت أسماؤهم عند العرب من فلاسفة اليونان. ذهب إلى أن الماء هو مصدر الوجود وهو المبدع الأول نقل عنه الشهرستاني في الملل والنحل ٢ / ٣٧٦ أنه قال: إن المبدع الأول هو الماء وهو قابل لكل صورة ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض.. وهو علة كل مبدع.

(٢) نفس المصدر ١ / ٧٧.

(٣) هو عبد الرحمن بن مصطفى العيدروسي ولد في تريم ـ حضرموت عام ١١٣٥هـ، زار الهند والروم والشام ثم رحل إلى مصر وبها توفي عام ١١٩٢ وترك رسالة اسمها لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود.

قال أهل المعرفة نفع الله بهم: " دلت البراهين العقلية النيرة على وجود الوجود المطلق ووجوبه وأنه شخص لا يثنى (واجب الوجود) ، وهو موجود في الخارج بالاتفاق والضرورة، وكل موجود في الخارج فهو شخص وأنه واحد لا ثاني له إذ لو لم يتميز الثاني عن الأول بوجه من الوجوه فهو عين الأول لا ثانيه، إذا وجد في أحدهما ما ليس في الآخر، وحيث فرضنا أنه لا زيادة فلا اثنينية. ثم إن تميز الأول بأمر محقق للاثنينية ولو بوجه اعتباري لم يكن الثاني مطلقاً بالمعنى المذكور بل مقيداً بذلك الأمر المميز له عن المطلق، والمقيد لا يكون ثانياً للمطلق بل وجه من وجوهه.

ثم ليس معنى الشخص (الجسم المؤلف) ، بل الشخص هو الموجود المتعين في الخارج وهو أعم من الجسم [١].

ولعل كلام العيدروس اقتباس من كلام ابن عربي الآتي: قال شعراً:

فعين وجود الحق نور محقق وعين وجود الخلق ظل له تبع

فالخلق عن الوجود والخلق قيده بالإطلاق، فالخلق قيد مقيد فلا حكم إلا له وبه والحق الحاكم،ولا يحكم إلا بالحق فحق الحق عين الخلق فانى تصرفون...[٢].

وممن قال بالوحدة أيضاً صدر الدين القونوي تلميذ ابن عربي وابن زوجته، وصديق الخواجة « نصير الدين الطوسي » المتآمر على الدولة العباسية ومسلمها للتتار[٣] ثم وزير هولاكو لاحقاً.

قال القونوي: " الحق سبحانه من حيث وحدة وجوده لم يصدر عنه إلا واحد لاستحالة إظهار الواحد وإيجاده ـ من حيث كونه واحداً ـ غير الواحد

---

(١) لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود ص/٧تاليف عبد الرحمن العيدروس/ تقديم وتعليق د. عبد اللطيف محمد العبد/ط١ / ١٩٧٧ /دار النهضة العربية ـ مصر.

(٢) الفتوحات المكية ,٢٧٩ / ٤ فصل الحق، حضرة الاسم الحق ضمن الباب ٥٥٨ في معرفة الأسماء الحسنى لرب الذي وهو باب طويل تطرق فيه لجميع الأسماء الحسنى.

(٣) محمد بن اسحق الملقب صدر الدين القونوي .

وذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على أعيان المكوَّنات ، ما وجد منها وما لم يوجد وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود المسمى بالعقل الأول أيضاً [١] وبين سائر الموجودات [٢] .

وممن أشار إلى الوحدة الألوسي صاحب « تفسير روح المعاني » : الذي قال في مقدمة تفسيره: حمداً لمن جعل معاني الأكوان تفسيراً لآيات قدرته وصيَّر نقوش أشباح الأعيان بياناً لبيانات وحدته،وأظهر من غيب هويته قرآنا غدا فرقانه كشافاً عن فرق الكتب الإلهية الغياهب، وأبرز من سجف ألوهيته نوراً أشرق على مرايا الكائنات بحسب مزايا الاستعدادات فاتضحت من معالم العوالم المراتب . . .[٣].

وقال في تفسير سورة الإخلاص:

وقال بعض الأجلَّة :أن الواحد مقول على ما تحته بالتشكيك فالمراد به هنا حيث أطلق المتصف بالواحدية التي لا يمكن أن يكون أزيد منها ولا أكمل، فهو ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد خارجا وذهنا وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية وهو مأخوذ من كلام الرئيس أبى على بن سينا في تفسيره السورة الجليلة ، حيث قال : أن أحدا دال على أنه تعالى واحد من جميع الوجوه وأنه لا كثرة هناك أصلاً ، لا كثرة معنوية وهي كثرة المقومات والأجناس والفصول وكثرة الأجزاء الخارجية المتمايزة عقلا كما في المادة والصورة والكثرة الحسية بالقوة أو بالفعل كما في الجسم وذلك يتضمن

---

(١) هذه تحديداً مقولة الفلاسفة في نظرية الفيض ، وسيتبين لك أن مقولات هؤلاء فلسفة خالصة. وهم يطلقون على مصطلح العقل الفعال اسم الحقيقة المحمدية ، خلطاً للأسماء. وبالتالي فهم يؤلهون كل شيء ومن هذه الأشياء الرسول ﷺ .

(٢) تفسير روح المعاني ، جـ ١ ، ص ٢ ـ محمود الألوسي المتوفى ١٢٧٠هـ ـ دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان .

(٣) تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٧٢ .

لكونه سبحانه منزهاً عن الجنس والفصل والمادة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان ، وسائر ما يثلم الوحدة الكاملة والبساطة الحقة اللائقة بكرم وجهه عز وجل عن أن يشبهه شيء أو يساويه سبحانه شيء" .

ولو توجه البحث لاستقصاء كل من قال بوحدة الوجود من الصوفية لتحول إلى مجلدات كثيرة . إذ المشهور عند الصوفية أنهم جميعاً يقولون بوحدة الوجود ولكن البعض يجاهر بهذه المقولة والبعض يسترها .

ومن هنا قال قائلهم:

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذلك الجمال يشير

وقال الجنيد : نحن أهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم [١] .

ويقوله ابن البنا السرقطي : [٢]

مذهب الناس في اختلاف ومذهب القوم في ائتلاف

وقد صرح لي أحد معارفي من الصوفية وهو دكتور جامعي أن جميع الصوفية يقولون بوحدة الوجود .

فمن أين جاءت فكرة وحدة الوجود ؟ .

جواباً على ذلك، لقد جاءت من الفلسفة اليونانية . وفي الصفحات القادمة بيان للدلالة على هذه الإجابة المختصرة .

---

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف ـ من سرقسطة بلاد الأندلس توفي بعد ٨٢٠هـ.

وحدة الوجود والفلسفة

وحدة الوجود هي مذهب في الوجود يقول إن كل شيء هو الله وأن الله وهو كل شيء.

قال د. عبد الرحمن بدوي في موسوعة الفلسفة:

"وأوليات هذا المذهب نجدها عند بعض الفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط ونجده عند انكسمندر[١]... ومن بعده عند اسكينوفان الأيلي الذي يرى أن الله هو الموجود الثابت السرمدي وقال بوحدة كل شيء وسماها الله. وتلميذه برمنيدس الأيلي يقرر أن الوجود ثابت لا يتغير ولا يفنى ويبقى دائماً هو هو. والعقل والوجود فيه يتحدان" [٢].

ثم جاء الرواقيون[٣]، فقالوا إن الوجود واحد يتجلى على شكل وحدة فردية (إلهية) ويتجلى بالكثرة وهي (العالم).

أما أفلوطين صاحب المدرسة الأفلاطونية المحدثة. فهو الذي بلور نظرية وحدة الوجود من خلال نظرية الفيض (الصدور).

ويتجه البحث ليبين وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية: وأنها فكرة تناقلها المنسوبون إلى الإسلام وخلطوها بتسميات إسلامية، محاولين التغيير من شكلها الخارجي وإعطاءها بريقاً إسلامياً لتمر على عقول عامة الخلق، ولتنشأ مفاهيم جديدة ظاهرها إسلامي وهي ليست من الإسلام في شيء.

ويبدأ البحث من:

[١] انكسمندريس قال: " أن مبدأ الكون هو اللا محدود واللا محدود واحد يتكثر عن طريق الحار والبارد، فتتألف العوالم المختلفة بحركة دائرية وهذه

(١) لا توجد لدينا معرفة دقيقة بتاريخ حياته ووفاته: إنما هو من تلاميذ طاليس المتوفى ٥٥٠ ق.م.

(٢) موسوعة الفلسفة ٢ / ٤، ٦ – ٦٢٥.

(٣) أصحاب المدرسة الرواقية وقد تم تعريفها في الصفحات السابقة.

العوالم لا توجد دفعة واحدة وإنما تتابع فإذا فني الواحد وجد الآخر ، والأول اللامحدود قد يكون هو الماء كما قال طاليس والعوامل (البرودة والحرارة) تؤثر فيه . فيوجد عنه عالم ويفنى آخر بدورة لا نهائية ولا محدودة" . وهذا معنى وحدة الوجود عنده .

[٢] انكسيمانس: (١) "لا يجوز في الباري إلا أحد قولين: إما أن نقول أنه أبدع ما في علمه وإما أن نقول أنه أبدع أشياء لا يعلمها، وهذا من القول المستشنع وإن قلنا أبدع ما في علمه فالصورة أزلية بأزليته" أ.هـ (٢). وهذا هو عين القول بالوحدة لأن من فصل القول بعد ذلك فقال عن الموجودات هي أشباح للصورة الأزلية، أو انعكاسات على المرايا للصور للأزلية، وإلا فالوجود واحد ، لا تكثر فيه .ونقل الشهرستاني في أنه قال: "المبدع الحق ليس شيئاً من الأشياء وهو جميع الأشياء لأن الأشياء منه، وقد صدق الأفاضل الأوائل في قولهم مالك الأشياء كلها وهو الأشياء كلها إذ هو علة كونها بإنّيته فقط وعلة شوقها إليه وهو خلاف الأشياء كلها وليس فيه شيء مما أبدعه ولا يشبه شيئاً منه ولو كان كذلك لما كان علة الأشياء كلها، وإذا كان العقل واحداً من الأشياء فليس فيه عقل ولا صورة ولا حلّيه" (٣) .

[٣] أكسينوفان : (٤) يقول د. عبد الرحمن بدوي في الموسوعة: إن أفلاطون يقول عن أكسينوفان أنه قال: أن الكل واحد، ونرى أرسطو يقول أن أكسينوفان أول من قال بثبات الوجود ووحدته وردد هذه الأقوال ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ ثافروطس. . . والعبارة التي تنسب إلى أكسينوفان بهذا الصدد أنه قال: "إن الإله يظل دائماً كما هو ولما كان الله والطبيعة شيئاً واحداً فالوجود على

---

(١) انكسيمانس، ظهر قبل العام ٤٩٤ ق.م ورأى أن الهواء هو العنصر الأساسي للحياة.

(٢) الملل والنحل ٢ / ٣٨٠ .

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) أكسينوفان من مواليد امنسوى عام ٥٧٠ ق.م.

هذا الأساس يظل شيئاً واحداً " .

ثم يشرح د. بدوي كلام أكسينوفان بقوله: يجب أن يقال أولاً إن أكسينوفان كان يفرق بين الوجود بوصفه كلاً واحداً وبين الأجزاء المختلفة في الوجود. أما من ناحية الوجود بوصفه كلاً فقد قال أكسينوفان بأنه واحد بمعنى أن صفاته لا تتغير فالوجود واحد ثابت بنظر أكسينوفان وهذا لا يمنع من التغيرات الجزئية التي تنشأ في الكون بوصفها حوادث جزئية . . .

[٤] برمنيدس : [١] إن برمنيدس أحد أهم الفلاسفة اليونانيين الذين ركزوا أبحاثهم على ما وراء الطبيعة ،وخلص إلى نتيجة أن الوجود واحد ثابت. ويعلل برمنيدس ذلك بمقدمات عن المعرفة يصل بنتيجتها أن العقل أساس الحكمة؛ ويقول: " إن العقل هو الذي يستطيع أن يصور لنا الوجود الحقيقي " .

والآن فما هو هذا الوجود الذي يصوره لنا العقل؟ هذا الوجود هو الوجود المطلق الأزلي الأبدي الواحد غير المتغير، غير الحال في المكان وهو الوجود الذي لا يمكن التعبير عنه ، فالوجود هو كل شيء لأن ما عدا الوجود العدم ليس بشيء. والوجود قديم أبدي وهو غير محدث[٢].

وسار زينون الأكبر[٣] على نهج أستاذه برمنيدس حذو القُذَّة بالقُذَّة ، إضافة إلى أنه برع في الدفاع عن مذهب أستاذه حتى أنه لم يخالفه في شيء.

[٥] فيثاغورس: [٤] جعل فيثاغورس نظرية العدد أساس نظرية وحدة

---

(١) موسوعة الفلسفة ١ / ٢٦٨-٢٦٩ .

(٢) نفس المصدر ١ / ٢٧٠ .

(٣) سمي زينون الأكبر لتمييزه عن اللاحق (زينون) مؤسس المدرسة الرواقية. والأكبر هو أحد فلاسفة المدرسة الأيلية وهو الأقدم لذا أطلق عليه الأكبر. ولمزيد من التفصيل انظر موسوعة الفلسفة ١ / ٢٧١ وما بعدها.

(٤) هو فيثاغورس بن فسارخس ، لا يعرف تاريخ ولادته تدقيقاً لكنه هاجر إلى صقلية عام ٥٣٢ ق.م وتحلق حوله طلاب العلم هناك. توفي عام ٤٩٧ ق.م. اختلف في أصله فقيل إنه من أصل فينيقي من مدينة صور وقيل إنه من جزيرة ساموس.

الإله ثم وحدة الوجود. فقال: إن مبدأ الموجودات هو العدد وأول العدد هو الواحد ويرى أن العدد واحد لا يدخل في الأعداد فالأعداد تبدأ من اثنين.

والله تعالى واحد لا كالآحاد ولا يدخل في العدد ، ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس، . .فهو فوق الصفات الروحانية.

والوحدة تنقسم إلى وحدة بالذات وإلى وحدة بالعرض فالوحدة بالذات ليست إلا للمبدع للكل الذي منه تصدر الوحدانيات، . . . والوحدة بالعرض تنقسم إلى ما هو مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد وإلى ما هو مبدأ للعدد وداخل فيه فالأول كالواحدية للعقل الفعال لأنه لا يدخل في العدد والمعدود والثاني ينقسم إلى ما يدخل فيه كالجزء له فإن الاثنين مركب من آحاد لا محالة [١] ، فالواحد إذن موجود في كل شيء لا محالة.

ولما كان إخوان الصفا ممن يؤمن بفلسفة فيثاغورس فقد بينوا هذا بصورة أوضح فقالوا: "إن الله ليس بشخص ولا صورة بل هوية وحدانية ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة وصنائع عجيبة. . . وهو الفائض منه جميع الموجودات ، وهو المظهر صور الكائنات في الهيولي. . . فكان وهو موجود في كل شيء من غير المخالفة مع كل شيء من غير الممازجة كوجود الواحد في كل عدد" [٢].

"ذلك أن الواحد لا يتوهم متوهم أن قبله شيء من العدد تقدمه، إذ هو أول موجود فاض منه الوجود، فكان الموجود الذي لم يتقدمه وجود شيء (الواحد) وفاض منه الثاني فهذا الذي لمنزلة واحد العدد هو الإبداع الأول [٣] .

والأحد بإثبات الألف هو المبدع سبحانه، إذ كانت الألف متقدمة الحروف فتثبت الألف في الأحد مرتين بصورتين مختلفتين فالأولى مفردة بذاتها والثانية

---

(١) الملل والنحل ٢ / ٣٨٩ - ٣٩٠ ، باختصار وتصرف يسير .

(٢) رسالة ٤ / ١ ، ص ٥٠ نقلاً عن (حقيقة أخوان الصفا) د . عادل العوا / دار الأهالي دمشق ـ سوريا ط عام ١٩٩٣ .

(٣) الإبداع الأول هو العقل الفعال. كما بينه الشهرستاني في شرح فيثاغورس ٢ / ٣٩١ .

مخالطة لصورة الأولى لأنها ألف منعطف بعضها على بعض فالألف الأولى من الأحد هي الأحدية والألف الثانية هي الواحدية. فواحديته من أحديته.... فهو الأحد وأول من أبدعه الواحد المنبعثة منه الآحاد أصل ينبوع الأزواج والأفراد، ولما كان الاكسير الأول والكيمياء الأفضل هو أن صفته وجلالته أن يكون مبدأ كل كثرة لذلك قيل له كيمياء... وهو أصل السعادة (١) (٢).

وهذا الشرح والتعليل الفيثاغورسي للواحد نجده مشابهاً تماماً عند ابن عربي لما عند إخوان الصفا، قال في كتاب الألف: "أحدية حمد الواحد في وحدانيته، وحدانية حمد الأحد في أحديته، فردية حمد الوتر في وتريته، وترية حمد الفرد في فرديته، الله أكبر استدرك الناظر النظر وقف الخاطر بهذا حين خطر، لاح بالتضمين لا بالتصريح وجود البشر، وحدانية حمد الواحد في اثنينيته، فردية حمد الفرد في زوجيته، وترية حمد الوتر في شفعيته، وبقي حمد الأحد أحداً في أحديته، صلى الواحد سبحانه بتسبيحه على الإنسان الواحد محمد الخارج بعض الضرب الموقوف على صناعة العدد، وهكذا الفرد والوتر ما عدا الأحد، فإذا عادت الصلاة عليه لما لم يجد من يستند إليه وسلم من هذا المقام تسليماً.

ثم بعد شرح بين فيه أن العابد مهما عبد ما عبد إلا الواحد بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقضاؤه لا سبيل أن يكون في وسع مخلوق أن يردَه فهو ماض نافذ، فما عبد عابد غيره سبحانه وتعالى.

---

(١) رسائل إخوان الصفا، نقلاً عن حقيقة إخوان الصفا ص٢٤٥.

(٢) وتأثراً بهؤلاء كتب أبو حامد الغزالي رسالة وَسَمَها بـ(كيمياء السعادة) أورد في مقدمتها كلاماً مشابهاً لكلامهم فقال: الحمد لله الذي أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة.... وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات وصفى أرواح الموقنين عن ظلم الشهوات... أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدانيته...إلخ ... واعتبر أن كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله. ففي السماء جواهر الملائكة وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين. انظر ص١٢١-١٢٢ من كيمياء السعادة ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي.

يقول. فالمعبود بكل لسان وزمان إنما هو الواحد ، والعابد كل عابد إنما هو الواحد فما ثم إلا الواحد [١] .

[٦] أفلوطين والأفلاطونية المحدثة : [٢] وهو الأهم في هذا السياق باعتباره نقل أفكار متقدميه أفلاطون وأرسطو، وباعتبار أنه مَثَّل مدرسة فكرية نُسِبتَ إليه هي الأفلاطونية المحدثة.

وإن كان « فيلون » [٣] قد حاول أن يسد بعض الثغرات ويكمل النقص الذي رآه عند الفلاسفة السابقين ويبذل بهذا محاولات جعلته يشكل مرحلة تمهيدية أو أولية لمبادئ الأفلاطونية المحدثة.

فإن أفلوطين استطاع أن يبين بدقة وإحكام النظرة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن يبين العلاقة بين الله وبقية الموجودات. (المحدثات بشكل لم يستطع التوصل إليه الفلاسفة السابقون) .

على أنه تجدر الإشارة في هذه المقدمة إلى مسألة جدّ هامة تميز مرحلة وأفكار الأفلاطونية المحدثة عن غيرها.

وهي وجود هذه المدرسة بعد ظهور الديانة اليهودية بمدة من الزمن. وبشكل مواكب لظهور الديانة النصرانية. وبالتالي تأثر الفلسفة الإلهية ببعض المفاهيم الدينية بل ربما كان الأمر عند بعضهم إخضاع الفلسفة للمفاهيم الدينية فالأصل عند فيلون هو الدين (اليهودي) ، وهذا الدين يعرض حقائقه بصيغ فلسفية يقول د. عبد الرحمن بدوي: " لقد استطاع (فيلون) أن يجمع بين الثقافة اليونانية ـ وقد حصَّل معظم أجزائها واستطاع أن يحيط بها إحاطة كبيرة ـ وبين التفكير اليهودي الذي كان يؤمن به إيماناً كبيراً، فلم يكن له ليرفض الواحد على

---

(١) رسائل ابن عربي كتاب الألف ٢-٥ باختصار.

(٢) أفلوطين من مواليد مصر (أسيوط) ٢٠٥م قصد الاسكندرية وأخذ عن أساتذتها، توفي عام ٢٧٠م ذكره الشهرستاني بلقب الشيخ اليوناني .

(٣) سبق ترجمته.

حساب الآخر وإنما كان ممثلاً لذلك النوع من الفكر الذي هو خليط بين الفلسفة والدين [١] .

أما أفلوطين فلم يكن متدينا بالديانة النصرانية لكن أستاذه لامونيوس كان نصرانياً من أبوين نصرانيين ـ ثم انتقل إلى الديانة اليونانية القديمة [٢] . وهذا يشير إلى حالة من التأثر بالديانة النصرانية.

لقد كانت فلسفة أفلوطين التي تمثل الأفلاطونية المحدثة [٣] مزيجاً متجانساً من آراء أفلاطون والرواقيين وفيلون وبين الأفكار ـ التنسكية الهندية الشرقية[٤] .

ولكن الأثر الأكبر فيها كان بلا شك لأفلاطون.

يقول د. مصطفى النشار: ولن يماري أحد في أن تعاليم أفلاطون كان لها أكبر الأثر عليه حتى أكد هو في كثير من الأحيان أنه إنما يفكر بوحي أفلاطون وأن أفلاطون قد سبقه في كل ما أتى به [٥] .

لهذا تم الاستغناء عن ذكر أفلاطون وأرسطو مستقلين في البحث، ففي الأفلاطونية المحدثة ما يغطي آراءهما الأساسية في المسألة.

وأساس نظرية أفلوطين في الألوهية هي نظرية الفيض التي قال بها أفلاطون ولكن أفلوطين وضحها أكثر، ومختصرها:

أن الله قوة وهذه القوة تفيض بما فيها فينتج الوجود ولكن هذا الفيض ليس معناه خروج هذه القوة عن نفسها وفيضانها بما فيها في الخارج أو على الخارج،

---

(١) موسوعة الفلسفة ٢ / ٢٢٠ .

(٢) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٢٦ .

(٣) سميت مدرسة أفلوطين بالأفلاطونية المحدثة لأنه تبنى آراء أفلاطون بقوة حتى أنه كان يقال له ولأتباعه بالأفلاطونيين. وتبنى أيضاً آراء أرسطو. وحاول أن يجمع بين المتناقض منها ويشرحها وضيف عليها حتى أطلق المتأخرون عليها الأفلاطونية المحدثة. ويقال أنها أيضاً المدرسة الاسكندرية، أو المذهب الاسكندري.

(٤) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. ١ / ٢٢٨ بتصرف.

(٥) فكرة الألوهية عند أفلاطون ص٢٧٨-٢٧٩ .

إنما معناه أن تظل هذه القوة كما هي في نفسها وتكون العلية عندها أن تبذل آثارها لا أن تبذل جوهرها، . . . وهذه فكرة عميقة يستخدمها أفلوطين لأول مرة تقريباً وستصبح فيما بعد مصدراً خصباً لكثير من الأفكار ، إن في المسيحية أو في الإسلام أو في كل المذاهب التي تنتسب إلى الأفلاطونية وتتأثر بها في الفلسفة الحديثة ونعني بها (فكرة الكمال) . . . وجوهرها أن المعقول يحدث أثره ولا ينقص هو من ناحيته . . . لأن الفيض في هذه الحالة لا يكون على صورة أجواء تنتقل من المؤثر إلى الأثر، . . . وكذلك الحال بالنسبة إلى الله أو الأول أو المعقول أياً كان : يظل كما هو في استقلاله وكماله وذاته ولا يخرج عن هذه الذات وإنما يحدث التأثير بتأثر الشيء الخارجي، وهذا التأثر الخارجي الذي يحدث يكون وجوداً ليس منتزعاً، وكأنه جزء من الوجود الأول، وإنما أقصى ما يقال عنه إنه حالة تأثر صرف بشيء آخر[١] .

ويحاول أفلوطين تبسيط هذه الفكرة التي يعسر فهمها بلغة العقل فيقول:

إن هذا الفيض يحدث كما يحدث نور الشمس، وكما يصدر الماء عن الينبوع، دون أن يتغير الينبوع، فالمخلوق هو كشعاع الشمس بالنسبة إلى الشمس.

وبالتالي نصل إلى معنى فكرة وحدة الوجود التي يعبر عنها بقول بدوي:

وأحسن التشبيهات التي يمكن أن تستخدم في هذه الحالة : أن يقال إن حلول الله أو الأول في الكون كحلول الروح في البدن[٢] .

فالروح تعم جميع البدن دون تبديد أو تكثر. ثم يعلق د. بدوي قائلاً : التجاء أفلوطين إلى التشبيهات هنا مرجعه عجز اللغة عن التعبير. وهي نفس حجج الإسلاميين المنسوبين إلى هذا الاتجاه.

كقول بعضهم : إفشاء سر الربوبية كفر ، وقول الآخر :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

---

(١) موسوعة الفلسفة ١ / ٢٠٠ .
(٢) نفسه ١ / ٢٠١ .

ويشرح د. محمد عبد الرحمن مرحباً نظرية الفيض عند أفلاطون ويصل إلى خلاصة يقول فيها:

كذلك تمثل فلسفة أفلوطين طريقين: طريقاً ميتافيزيقياً هابطاً يضيف فيه أفلوطين سير الوجود من الأول إلى العقل ومن العقل إلى النفس (النفس الكلية) إلى الأجسام المحسوسة يقابله طريق صوفي صاعد يضيف فيه أفلوطين عودة النفس إلى مصدرها الأول وانجذابها إليه واتحادها به.

فالطريق الأول يسير من الوحدة إلى الكثرة والطريق الثاني يعود من الكثرة إلى الوحدة... فيتداخل الكل في الكل ويكون الكل ممثلاً في الجزء والجزء ممثلاً في الكل وعلى هذا النحو يمكن لكل جزء أن ينطوي في جملته على جميع خصائص الكل ويكون سمة له ودليلاً عليه.

وهذه الفلسفة إنما تكشف عن نصيب كبير من مذهب وحدة الوجود بحيث يكون الله منبثاً في الأشياء، مختلطاً بها، غير متميز عنها، فالأول يحوي كل شيء؛ لأن الأدنى حاضر في الأعلى، فالجسم في النفس، والنفس في العقل، والعقل في الأول أو الواحد، والواحد في كل مكان، موجود في كل شيء، بحسب استعداد كل شيء لتقبله [١]. وبهذا يتم تفسير حكمة أفلوطين المشهورة "الغائب المطلوب في طي الشاهد الحاضر" [٢].

وهذا الذي ذكره د. مرحباً هو اختصار لنظرية الفيض التي تبلور المذهب، فأفلوطين يقول بوجود الواحد: وهذا الواحد هو البسيط الذي لا يقبل التجزؤ في مقابل الكثرة، وأنه الأول، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وهو العقل الفعال أو العقل الأول على حد تعبير موسوعة الفلسفة، وهذا الواحد الذي صدر عن الأول يكون فيه ثنائية وهذا أهم فارق بين الثاني والأول ولكن يجب أن ننظر إلى ثنائية

---

(١) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ١ / ٢٤٤ .

(٢) الملل والنحل ٢ / ٤٧٢ .

الثاني على أنها تقوم بوحدة الأول فالواحد (الأول) يطبع الثاني (العقل الفعال) بطابع الوحدة ، فهو واحد أيضاً والأول لا يوصف يعني أنه فوق التعقل والعقل، فالثاني هو التعقل والعقل .

وهنا لابد من ملاحظة وهي : أن العقل وجود والعقل عندما يفكر ينتج معقولات، وهذه المعقولات هي المثل الأفلاطونية (المعرفة التي تمثل عند الصوفية اللوح المحفوظ) .

ثم إن أفلوطين يتحدث عن هذه الصور على النحو الذي تحدث به أفلاطون في آخر حياته بوصفها أعداد،وهذه الصور في الواقع هي الوجود.

وبما أن العقل صادر عن الأول الأزلي الأبدي، فالعقل الفعال أزلي أبدي. وإذا كان العقل قد صدر عن الأول بهذه الطريقة؛ فكذلك وبالطريقة ذاتها صدر الثالث عن الثاني، والثالث هو النفس الكلية. وهذا الثالث يشكل مركزاً وسطاً بين العقل الفعال والعالم المحسوس، وهذه النفس الكلية هي التي ينتج عنها العالم المحسوس ؟! .

والسؤال هنا: إن النفس من عالم المعقول. وبين عالم المعقول وعالم المحسوس هوة كبيرة لا يمكن عبورها. فكيف تمكنت النفس من النزول إلى العالم المحسوس ؟! .

والجواب عند أفلوطين: إن النفس لما رأت اشتياق الهيولى إلى وجود صورة لها منحتها هذه الصورة فاضطرت من أجل هذا إلى الحلول في المادة ـ والمادة كثرة، لذلك فالنفس رغم حلولها في المادة ، تبقى محتفظة بما لها من وحدة كما هي حال النفس الإنسانية بالنسبة إلى البدن بمعنى أن البدن كله يقوم فيها ويتقوم بها. فكذلك سريان النفس الكلية بالوجود.

أما وجهة نظر أفلوطين بالنسبة للعالم المحسوس فهي معارضة في نتيجتها لمن يقول أن العالم المحسوس كله شر. وهي وجهة نظر معتبرة بين الفلاسفة ـ ويقول:

كيف يحق لكم أن تنعتوا هذا العالم (المحسوس) بأنه كله شر مع أنكم تقولون من جهة أخرى بوجود العقل في الإنسان وتقولون بالعناية الإلهية، وهذا كله يشعر بأن الأشياء لم تخلق عبثاً، وينفي بالتالي أن يكون العالم المحسوس شراً قائلاً: عن العالم المحسوس بالنسبة للعالم المعقول هو كالأشعة بالنسبة للشمس أو كفروع الأنهار أو البحيرات بالنسبة للنهر أو الينبوع، بل إن العالم المحسوس مرآة العالم المعقول، وهنا لا يُشك بأن الصورة التي في المرآة وإن لم تكن هي الأصل فإنها لا يمكن أن تختلف اختلافاً كلياً عن الأصل.

هذه هي رحلة الخط النازل في نظرية أفلوطين للواحد والعقل الفعال والنفس الكلية والعالم المحسوس.

أما رحلة الخط الصاعد فيراه أفلوطين كما يراه أفلاطون وهو:

[١] إن النفس كانت تحيا من قبل حياة أبدية ثم هبطت من هذه الحياة الأبدية إلى الحياة الجسمية البدنية، وهي تحمل في أساسها صفات الواحد الأول، لأنها تحمل صفات النفس الكلية والعقل الكلي، وبالتالي فعليها التخلص من هذا المحسوس المتبدد لكي تعود إلى الوحدة والطمأنينة وهنا يكون سلوكها بالعودة إلى الخط الصاعد نحو مصدرها وهذه الحالة التي يعبر عنها الصوفية بحالة تبدأ بالوجد ويتطور حنين النفس إلى مصدرها إلى حالة عشق ونشوة وسكر وفي هذه الحالة تصل النفس إلى ما يصطلح عليه الصوفية الفناء أو المحو فإذا وصل إلى الصعق، وبدأت النفس تطمئن فتشعر وكأنها اتحدت بالله ـ أو صار الشخص كأنه هو الله ـ فيقول:

أنا الموجود المعدوم والمنفي والباقي
أنا المحسوس والموهو م والإفعاء والراقي
أنا الكنز أنا الفقر أنا خلقي وخلاقي [١]

(١) نقله الجيلي في الإنسان الكامل عن من لم يسمه ١ / ١١.

وفي هذه الحالة تسقط التفرقة بين العاقل والمعقول فيصبحان شيئاً واحداً هي حالة الاتحاد بالله، والفناء فيه [١].

قال عبد الكريم الجيلي في العالم المحسوس والمعقول:

ذات لها في نفسها وجهان ... للسفل وجه والعلا للثاني
ولكل وجه في العبارة والأدا ... ذات وأوصاف وفعل بيان
إن قلت واحدة صدقت وإن تقل ... اثنان حقاً إنه اثنان
أو قلت لا بل إنه لمثلث ... فصدقت ذاك حقيقة الإنسان
ولئن ترى الذاتين قلت لكونه ... عبداً ورباً إنه اثنان [٢]

وقال: واعلم أنه نسبة كون الأرواح المتعددة مخلوقة من نور الحق هو كنسبة الشعاعات المختلفة المضيئة من شعاع الشمس، ونسبة ما يدعيه المحققون من واحدية العالم نسبة واحدية ولو ظهرت في تلك الزجاجات على اختلافهن، فهي واحدة لم تتعدد ولم تتنوع في نفسها ولو تنوعت المظاهر. ويكفي هذا القدر من التنبيه على هذا الأمر [٣].

(١) اختصار للأفلاطونية المحدثة من موسوعة الفلسفة جـ١ / ١٩٠ وما بعدها.
(٢) الإنسان الكامل ١ / ١٢-١٣.
(٣) الإنسان الكامل ٢ / ٨٨.